عصير الرمان

قصص قصيرة خيالية

عباس مدحت البياتي

عصير الرمان

عصير الرمان

قصص قصيرة فانتازيا

عباس مدحت البياتي

الإهداء:

أهدي كتابي إلى أحبتي الذين شاركوني الحياة،
وبالذات لزوجتي الحبيبة وأبني الغالي، ولكل
الأصدقاء والمعارف، وللقارئ العزيز.

عباس مدحت البياتي

الكتابة هي لغة الحياة، لغة التواصل، كزقزقة العصافير تضفي على صبح الثقافة بهجة، الكل يستسيغ سماعها. الكتاب يتضمن قصص شيقة

معظمها من وحي الفانتازيا، وددت بها أستبيح ذهن القارئ ومشاكسته بفيض أفكاري.

العقل والمنطق يقودان الفرد في خط مستقيم من نقطة (أ) إلى نقطة (ي). أما الخيال، فأنه يطوف بالفرد في منحنيات جميع أحرف اللغة.

عباس محمد البياتي

المضمون

أ. عصير الرمان.....6

ii. سمط الجنون..... 25
iii. هسيس الليل..... 45
iv. جمانة 56
v. بقايا الكأس 90
vi. غيرة القواد.....96
vii. البصمة.....106
viii. كيد العقارب.....122
ix. الكابوس.....138
x. بطاقة السكن.....

1- **عصير الرمان**

لأول مرة في حياتي، تطأ قدماي مدينة (ج) الصينية، مدينة غريبة الأطوار: بطبيعتها، بأهلها، بقوانينها، وبصمتها. وجدتها مختلفة تمامًا عن المدن الصينية التي عهدتها؛ لا نظام، لا زخم حضاري، لا عمران بارز، ولا أسواق نابضة بالتنوع. بل خلل واضح يوحي بأن هناك أمرًا خفيا غير معلن يكتنف نظامها... كأن الدولة نفسها قد تخلّت عنها.

كانت زيارتي لها محض مصادفة بسبب تشابه الطرق والأسماء، ولجهلي باللغة الصينية، كلها عوامل حرفت مساري عن وجهتي الأصلية. فساقتني عجلة التاكسي، مدفوعة بتيه ظني، إلى مدينة (ج) النائية والمنعزلة، البعيدة كل البعد عن مدينة (خ) التي كنت أقصدها... فاستثارني الفضول لأكتشف خفاياها قبل أن أعود أدراجي.

ما إن وطأت أرضها، حتى خالجني شعور بالوحشة اللون الرمادي الذي يكسو المدينة، وجوه بائسة، ملامح هجينة، أسواق فقيرة، شوارع ضيقة، وأبنية عشوائية وكأنها تهمس لي: "أنتَ في المكان الخطأ". أين ذهبت ناطحات السحاب، والأمواج البشرية، وبريق المطاعم والفنادق الفاخرة؟ لا شيء من ذلك يسرّ العين... وكأن الحياة هنا قد بُترت، وبقيت أطرافها تتسكع في هذا الفراغ.

كان شهر آب يلفح بلهيبه، ولساني لصق بحلقي عطشًا. عندها بحثت عن قارورة ماء تروي عطشي، كما يبحث المرء عن فرصة نجاته، فوجدت دارًا للمسنين وفي زاويتها "مُزَمَّلة" كبيرة تحيط بها وجوه منهكة. ارتشفت رشفة منها،

لكـن المـاء كـان راكـدًا، مجـا، مالحًـا، كـأن المدينـة لا تعـرف العذوبة. بل بدت هي نفسها عطشى، حتى في أعماقها.

الطرقـات كانـت شـبه خاويـة، لا يملؤهـا سـوى الظـلال، وعـدد المـارة يُحصـى علـى الأصـابع. مدينـة مهجـورة مـن المعنـى، مأهولـة بـبعض التـائهين والمنبـوذين الـذين التصـقوا بشـوارعها كآثار قديمة.

وأنـا أواصـل سـيري فـي ذلـك الشـارع العتيـق، لمحـت واجهـة كافتيريـا صـغيرة تتـزين بيافطـة مضـيئة، وعلـى رفهـا المقابـل قـوارير زجاجيـة براقـة، تحتـوي علـى عصـير رمـان قرمـزيّ جذّاب، بارد، يقطر انتعاشًا.

دخلـتُ المحـل بشـغف، طلبـت قـدحًا منـه، فأشـار إلـيّ البـائع بالـدفع عبـر آلـة دفـع حديثـة، آليـة، وحـين قـدمت ورقـة نقديـة بخمسـة مـاوات، رفضـت الآلـة تقبلهـا، لأنهـا مبرمجـة علـى قيمـة السـلعة فقـط. كمـا أن العامـل يمنـع عليـه التلاعـب وتجـاوز القوانين المعمول بها.

عنـدها عـرض علـيّ الكاشـير "قسـيمة دفـع" بقيمـة أربعـة مـاوات قيمـة العصـير علـى أن أصـدقها فـي "بنـك الخـردة" المجـاور للكافتيريـا، ثـم أعـود بهـا ليقـدم لـي العصـير. ورغـم غرابـة الإجـراءات، قبلـت العـرض، فـالعطش كـان شـديد ودافـع لأرضـى بالموقف.

خرجت أبحث عن البنك وسط شوارع خاوية لا تهتدي إليها البوصلة، وتساؤل واحد يرن في رأسي: أين ذهب شعب المليار ونصف؟ لمحت طفلًا يبدو تلميذ مدرسة، سألته، فأشار إلى رجل أسمر بدا وكأنه يتعقبني. حين قرأ الورقة طلب مني أتبعه فتبعته، قادني في دروب ملتوية، ثم تركني فجأة دون أن يرشدني، بعد أن تجاوزنا واد صغير مهجور تمر به جادة قديمة.

هناك صادفت رجل أربعينيا يرتدي نظارات سوداء وسترة صيفية أنيقة توائم لون نظارته وحقيبته، كان يبدو كفيف البصر، مستندا في مشيه على كتف شاب عشريني يرافقه، لكياسته ووقاره الدال عليه منظره؛ ايقنت أجد لديه المساعدة.. فسألته:...

- بالله أين يقع بنك الخردة؟....

لكنه بدلًا من الرد، سألني بدهشة:...

- ماذا تقول؟؟.... البنك وقع!...هل وقع البنك فعلا؟ متى حصل ذلك؟
- لا اقصد سقوط البنك!
- هل معاك حقيبة؟
- كما ترى لا احمل حقيبة، لا تؤول الكلام، تبدو غريبا الطباع، سألتك أين يقع البنك؟ والحقيقة أنا لا أعرف سر هذه الورقة، كل من يتفحصها يندهش، كأنها بمليون يوان هي ورقة نقدية بقيمة أربعة ماوات فقط.

- كم قلت؟.... مليون؟؟؟؟ لا لا لا مستحيل، لقد شممت رائحة المليون، أأنت تحمل في جيبك مليون يوان؟ أين هي؟ أريناها.
- لا إله إلا الله، ما بك، جننت؟ عن أي مليون تتكلم؟ خذ الورقة وأقرأها لتفهم.

في البداية توقعت أساء الفهم، لكنه تقصد البلاهة، فعندما لفظت دون قصد كلمة "مليون"، تغيّرت ملامحه. تبادل الهمس مع رفيقه، وأحاطاني باهتمام مفاجئ.

أخذ الشاب يقرأ الورقة، ثم مسكني من ابطيَّ.. شعرت بنية الغدر في وجوههما، لازماني بحجة إرشادي، آثرا الانتظار في زاوية المنعطف من جهة الوادي المهجور. كانت الشمس قد تجاوزت خط الزوال، أزفت ترعش في انحدارها نحو وهدة الغروب. لازال للوقت بقيَّ قبل أن ينث الغسق رماده في العيون...

عندما لفظت كلمة "مليون"، شعرت أنني حرّكت زغب غريزة الطمع في فكره. شك بمسعاي، وكردة فعل سريعة منه سألني: كم قلت؟ مليون؟ أأنت تحمل في جيبك مليون يوان؟..... فسر كلامي بأني لا بد أن أكون من الميسورين، وخاصة لباسي ووجهي يدلان على أني ميسور الحال. طالما أنا غريب؛ فلابد أن أحمل في جيبي ما يعينني على السفر والمشاوير. وطالما تفوهت بكلمة مليون، إذا لا بد أن املك هذا المبلغ، لأن الفقراء لا تطفح على ألسنتهم هذه الكلمة بتاتا، وأن طفحت ستطفح كبارقة رقمٍ في تصريف عدد،

ولـيس كقيمـة نقديـة، لكنـي بسـذاجتي حرّضـت النيـة فـي أنفسـهم، كشـفت لهـم عـن غربتـي وجهلـي. ففـي اللحظـة التـي كانـا بهـا يبحثـان عـن الفرصـة، كنـت قـد صـنعتها لهـم بتفـوهي وعبثـي الغيـر مقصـود، ولابـد مـن اقتنـاص أنصـاف الفـرص، لأن الفـرص لـن تكـرر ذاتهـا... كـأني حـين كنـت أسـأل عـن البنـك، كشـفت لهـم عـن هـويتي ومخـزون جيبـي. لأن الفقـراء لا يتعـاملون مـع البنـوك. هكـذا بـتُ فـي نظـرهم صـيدًا ثمينًـا دخـل الشباك برجله.

فـي حقيقـة الأمـر كنـت أحمـل فـي جيـب سـري مبلغـا لابـأس بـه. حدسـهم الشـفيف كـان فـي محلـه.. لـذا طلـب مـن الشـاب ملازمتـي، وهـو الـذي يظهـر عليـه مـن ذوات الخبـرة فـي قطـع الطرق وجز الجيوب، وقد بان لي محترفا في شخصيته.

بـان الشـاب جلـدا، قـاسٍ الملامـح، ناشـف الوجـه، حـاد النظـرات، صـفاته تـنم عـن طـابع غـدر تطبـع بـه. فيمـا ذو النظـارات كـان يرمقنـي بعينيـه المفلطحتـين بنظـرة شـزرة، كأنـه بشـاربه الهتلـري المرسـوم كابتسـامة شـيطانية علـى وجهـه كـان يقـول لـي: "لـن تخـرج حيًـا". كـان يبحـث فـي وجهـي عـن كلمـاتي الأخيـرة، عـن ثمـن حريتـي. شـعرت بـأنني أدركـتُ أجلـي. كـان خشـنا، قويـا، يحمـل تحـت أبطـه حقيبـة صـغيرة سـوداء تحتـوي علـى مسـتلزمات العمـل، فيمـا كـان الشـاب يعلـق علـى كتفـه الأيمن غرارة من الخيش تحمل أدوات حادة..

سـرعان مـا وجـدت نفسـي محاصـرًا بـين الاثنـين. فـي يـد الشـاب مطـواة حـادة، عنـدها أمرنـي بـالجلوس. اسـتندتُ إلـى جـدارٍ

طينـيٍ قـديم نخرتـه الأمطـار، مُوشّـى بثقـوب كعُقـر العقـارب والأفـاعي. جلـس الرجـل ذو النظـارات السـوداء إلـى يمينـي، بينمـا تمدّد الشـاب بيننـا علـى ظهره، واضـعًا رأسـه فـي حجـري، وسـاقيه مثنيّتـين بزاويـة حـادة. كـان يرتـدي قميصًـا شـفافًا بلـون الحشـائش، وبنطـال جينـز أزرق غـامق.. عنـدها أخـرج قلمًـا أبيضـا غريـب الشـكل، أشـعل طرفـه لينبعـث منـه دخـان خفيـف، فيمـا كـان طرفـه الثـاني يحتـوي علـى نـابض (زمبلـك)، أشـبه بمحايـة قلـم الرصـاص بلـون النيكـل. ثـم نـاولني إيـاه آمـرا أيـاي أن ادخن....

- خذ، دخّن...

خوفًـا منـه وضـعتُ رأس الزمبلـك علـى لسـاني. سـائل غريـب انسـاب فـي فمـي، كزيـت الخـروع أو مخـدّر الأسـنان. أنتشـر قيح ذلك الزيت في فمي، هجست إلى جانب لسعته فيه برودة منعشـة وعطـر أنتشـى فـي فمـي برائحـة النعنـاع المـنعش، هجسـت بحالـة انتعـاش انسـابت فـي الـذهن والجسـد لبرهـة. خـارت قـواي، تهـدّل جسـدي، شـعرت بنفسـي تتلاشـى أمـام اللحظـة. شـعور غريـب راغـت بـه الـنفس لـم أجربـه مـن قبـل.. عنـدها عرفـت بأنَّهـا سـيجارة الكترونيـة تحتـوي علـى نـوع مـن المخـدرات أدركـت أنهـم يحـاولون تخـديري، فتمالكـت ذاتـي وتظاهرت بالقرف كي لا أُعيد تجربتها.

هجسـت بصـداع خفيـف، الـذهن مشـوش، والبـدن خـائر القـوى. وأنـا قـابع بـين ذئـاب لا يشـغل بـالهم سـوى نهشـي. بـتُ أترقـب الفرصـة المتاحـة لأنسـلت مـن قبضـتهم، أبحـث عـن الزلـة بـين

طيات الزمن، أعيش حالة تجاذبات وشد وعناء نفسي بارتباك، متأملا أن أخلق الفرصة لنفسي من واقع الظرف لأتمكن من الهرب.

بت أفكر في استغلال لحظة الغفلة، بأن أغرز القلم في عين الشاب، لكن يدي لم تسعفني، قواي خائرة. الرجل ذو النظارات بدا وكأنه وحش، يرى فريسته تعذب بأنفاسها. في خضم تلك الحالة احتضرت إرادتي، هجست بنهايتي قد أزفت على يد هؤلاء. أصابني شعور بالانكسار والهلع، وأني لن أسلم على روحي إذا ما تجردت مما أملك، لأنهم سوف لن يتركوا لجريمتهم أثر يتبع خُطاهم.....

راودني يقين بأن القرار الصائب بعد السلب هو التخلص من جثتي، لتطمس بصمات جريمتهم في الظلام. وبين لظى السخط، وحيرة الفكر أمام الموت الزاحف وسكون الأجواء، ارتجيت رحمة السماء تحل العقدة الملتفة حول عنقي، كنت ألمح في نواياهم قبحًا يفوق جرأة الأيدي على الجيوب.

وما هي سوى لحظات حتى شقت صفوفنا عاصفة هوجاء، أُختلقت من وسط ذلك السكون فوضى عارمة، فتلت ضفيرة عصفها فوق رؤوسنا. صار كلٍ يشرع في معالجة أمر ذاته، رغت الغبرة في فمه وعيني الشاب، صار يسعل، يبصق وهو يفرك جفنيه براحة يديه. فيما ذات النظارات السوداء ما أن جفل؛ وقف على قدميه، خلال وقوفه سقطت نظاراته، ودون أن يقصد دعس عليها وحطم زجاجها، صار يدور في مكانه أشبه بالناعور، لا يستدل إلى منفذ، ولا ماسك بناصية

أمـره.. فـي تلـك اللحظـة مـرّت شـاحنة أمامنـا. وبوثبـة القـط تشـبثتُ خلفهـا كمـن يقفـز إلـى الحيـاة مـن قلـب المـوت، وتعلّقـت بهـا وهـي تغـادر دائـرة الخطـر متجهـة لجهـة الكافتيريـا. منقـذا نفسـي مـن بـراثن الأيـدي الأثيمـة، كـأنَّ يـد الله كانـت حاضـرة فـي ترتيب سناريو المشهد، فعدت إلى الجهة التي قدمت منها.

اهتـزت ثقتـي بنفسـي، قـررت تجنـب عـادة النقـر علـى العلـب الفارغـة، يجـب أن أكـف التفـوه عـن أي معلومـة تخصـني. سـاعتان مـن المجازفـة لـم أدرك بهمـا بنـك الخـردة. الشـمس لازالت تمسك بذوائب النهار.

عـدت أدراجـي إلـى الكافتيريـا، بنيـة إعـادة الورقـة للكاشـير، أحسسـت بأنـه الوحيـد كـان صـادقا معـي... لكـن المفاجـأة كانـت قاصـمة:- الرجـل الاسـمر الـذي أضـلني يجلـس علـى كرسـي الكاشـير! خرجـت مرعوبًـا، تائهًـا. شـككت بهـم عصـابة، يبـدو الكـل جـزء مـن اللعبـة. فلـم أعـد أثـق بمحيطـي، قـررت أن أعـود من حيث أتيت.

أوقفـت عجلـة تكسـي لتقللنـي إلـى المـرأب، وإذ بـي أتعـرف علـى صـاحب التكسـي، أنـه ذاتـه الكاشـير الـذي سـلمني ورقـة الأربعـة مـاوات..... توقـف يمينـا وبـات ينظـر إلـيَّ بعـين فيهـا سـخط، أرتعبتُ منه، لن أجرؤ على الاقتراب منه.

تركتـه وأنـا أهـف بخطـوات مسـرعة نحـو المـرأب وهـو يتبعنـي بعجلتـه علـى رواء، شـعرت أن المدينـة بأكملهـا تلاحقنـي، فيمـا أنـا أبحـث عـن مخـرج فـي وجـه رجـل عجـوز صـادف يكـون فـي

طريقي. كان أنيقًا، وقورًا، تبدو على هيئته الهيبة التي لم أجدها في الآخرين. وددت أن أستنجد به علّه ينقذني من كماشة اللصوص الدائرة حولي. قلت له:....

- بالله يا عم أشعر بأن عصابة تلاحقني، وأنا غريب هنا، أود أن أخرج من هذه البلدة، هل لك أن تساعدني وترشدني إلى طريق المرأب؟

أجابني بكياسة وهدوء منقطع النظير قائلا:...

- أشرح لي ما هي مشكلتك وماذا جرى معك كي يمكنني مساعدتك؟

أخبرته بكل شيء. وبعد أن صمت للحظات، قال:...

- يا أبني لقد دخلت المدينة الخطأ. لا يوجد بنك هنا، ولا عصير طازج. يجب أن تعلم بأنه لا يوجد شريف هنا، هذه المدينة منفى للمجرمين والقتلة واللصوص، الجميع نصّاب أو مجرم. لذلك تراها مهملة من قبل الدولة لا أحد يهتم بها، لكنها تعمل وفق نظام دون تجاوزات. وبما أني بصفتي رئيس هذه المدينة. فأطمأن، لا تبتأس فأنت في أمان.. لكن مسألة خروجك مرهون بين يديك؟
- كيف يا عم؟ ألم تقل أنت الرئيس، هل ممكن أن توضح لي أكثر...

- نعم يا أبني، هناك قواعد مبنية عليها هذه المدينة لا أستطيع مخالفتها، وهي؛.... عليك أن تدفع نصف ما في جيبك حتى تسلم على روحك، ولو كان ماوا واحدا. هذه هي القاعدة التي نتعامل بها مع الغرباء. ونحن بهذه المبالغ ندير شؤون المدينة ومساعدة العاطلين والمرضى والعاجزين عن العمل. لأن الدولة منعت عنا المساعدة، وقد آوتنا إلى هنا لتتخلص منا ومن جرائمنا. فان لم يكن هناك نظاما حازما يدير شؤون الناس؛ سوف تحدث فوضى، بحيث الأخ يأكل لحم أخيه... نحن نعمل كجماعة وليس كأفراد- الذي أعطاك الورقة عرفك على العصابة بانك غريب، وأراد أن يشهرك بين المجرمين.. والذي أضلك؛ ود أن ينقلك لجهة التنفيذ والسلب.. وهنا صدمتك شخصية صاحب التكسي، والحقيقة هو ضابط أمن المدينة.... صدقني لن تستطيع أن تخرج من هنا دون هذا الشرط، ربما يقتلونك ويسلبون كل ما في جيبك، ومن ثم يرمون جثتك على المزابل تنهشك الكلاب، حيث لا قانون يمنعهم من ذلك، ثم يحولن نصف ما يسلبوك إلي لإدارة شؤون المدينة.
- ماذا تقول! أنه منفى، لصوص ومجرمين؟ وهل أأنت منهم؟
- أنا كبرت على القتل والأجرام، أصبحت بلا قوة، لن أستطيع أن أعين نفسي، لذا انتخبت من قبلهم رئيسا

للبلـدة لأدارة شـؤونها، ولـن ينفـذ عمـل فيهـا إلا بعلمـي، هؤلاء لو سرقوك لأودعوا نصف المبلغ في خزينتي.

- طيـب يـا عـم أنـا موافـق، والمبلـغ الـذي معـي هـو الفـي يوان ومائة وسبعون ماو. هذا كل ما أملك.
- إذا حصـتنا هـي الـف يـوان وخمسـة وثمـانون مـاو تـدفعها الآن لـــي، وصـــاحب التكســـي لازال ينتظـــر أن يقلـــك خارج البلدة.

لـم يكـن أمـامي سـوى الرضـوخ لشـرطه لأنجـي نفسـي مـن الغدر. وما أن أستلم المبلغ مني حتى همس لي قائلا:...

- بالســلامة يــا أبنــي أصــعد مــع التكســي ولا تــرو لــه قصتك.. والآن تفضل مع السلامة.

ركبـت مـع الرجـل الـذي بـدأ ككاشـير، ثـم ظهـر كلـص، ثـم كضـابط أمـن المدينـة. سـارت العجلـة فـي طـرق وعـرة مملـوءة بالأشـجار المتشـابكة حتـى وصـلنا لـوادٍ سـحيق. هنـاك، أوقـف عجلته فجأة، ثم التفت إليّ مشهرًا مسدسه.

قال ببرود:....

- ما تبقّى في جيبك هو من نصيبي. وإلا أأخذه بالقوة.

صرخت:....

- لكنّ الرئيس قال النصف فقط!

ضحك بسخرية:.....

- لا وجود رئيس لهذه المدينة، إنها غابة وحوش. الجميع يعمل لنفسه. هذا الذي أدعى بأنه رئيس هو أكبر مخادع وأستاذ كبير في النصب والاحتيال، تمكن في لحظة ودون أن يبذل أي جهد، من أن يسلبك نصف ما تملك.... أنت الذي اختصرت المسافة بينك وبينه وعرفت نفسك عليه. نحن نتبع الفرص، أو نصنع الفرص بالجرم والشعوذة والتخطيط. وأنا الآن... آخذ نصيبي.

فعلا لا يوجد شريف في هذه المدينة، كنت أحسب الكاشير شريفا، إلا أنه خيب ظني، توقعت صاحب النظارات شريفا، بان لي ذئبا من لحظة لقائي به، حسبت العجوز شريفا فظهر ثعلبا، ماكرا، رغم اعترافه لي بذلك. ولكن غافلني وسلب ذهني ومالي بخبرته..

- وكيف أضمن نفسي من أن لا تغدر بي وتسلمني لآخر؟
- أنت معي في سيارتي، بيدي فرصة قتلك أو إنقاذ حياتك، والدليل أنظر في الورقة التي أعطيتك إياها، أنها مكتوب فيها أسمي، فأي شخص يفلح بسلبك سيضمن حقي بنصف ما يسلبك.

أخذ ما تبقى في جيبي دون رحمة، ثم واصل السير حتى مشارف قرية صغيرة. عندها سألته آخر سؤال:....

- يـا تـرى؛ ذلـك الـذي فـي القـوارير كـان عصـيرا أم مخدرا؟
- أنـه عصـير طـازج ولكـن الكافتيريـا لـيس مكانـا للجريمة. الآن أذهب لتلك القرية أنت في أمان.

عنـدها خرجـت مـن المدينـة منهكـا، مفلسـا، جائعـا، عطشـا، وبقي طعم ذلك العصير يدور في فلك نفسي..

2- سمط الجنون

لم يكن جميل سوى أنسان بسيط أذكته مباهج المناصب، فأنبثق في رواق الصمت كشمعة وضاءة، بدد عتمة الطريق أمام نواياه المعلقة ببارقة أمل، ثم تتبع حوافر أحلامه بيقين الواثق، فأضحى بين ليلة وضحاها سيد قومه، ومصدر إلهامهم.

سبقت فطنته توقعاته، فلم يتكئ على هواجس الظن كما فعل أقرانه، بل فاض ذكاؤه حتى طفح، فأغرق من حوله من منافسين، أولئك الذين شاركوه ماراثون المناصب والتأهيل والنجاح. ثابر في دراسته، فثبر المستحيلات بحدة ذهنه، ونال أرفع الدرجات والأوسمة، مقامًا ومكانة. بلغ القمة بيسر، وتلذذ بطعم المفاهيم كما يتلذذ المرء بشوكولاتة فاخرة، حتى تلونت كلماته بلون الثقة والحكمة، وتوشحت بمحبة المسؤولين، فامتلأ صحنه بجدية الأعمال وعبقرية الآراء.

واصل تأملاته بعيدًا عن ضجيج المنافسة، في ظل إعجاب المحيطين به، حتى أولئك الذين نافسوه لم يجدوا إلا أن يجلّوه. كرس ثورته الفكرية في الإبداع المبتكر، في شؤون المفاضلة والمقارنة والإسهاب والتحدي، فكان قنوعًا، صبورًا، ملهِمًا حد التخمة، في فك العقد وتسليك الطرق، وتمكن من تمليس الظروف المعقدة لصالحه، حتى طغى

سحره على أدائه، وأتقن تمثيل الأدوار المناطة به ببراعة لا تُجارى.

لم يتبع الظن في اختياراته إلا حين تعلق الأمر بقلبه المتعطش لعاطفة دافئة، تشفي غليله وتروي ظمأه. كان مدركًا لقدراته، فتعامل مع محيطه بعقل علمي، ومنهج عملي، ورؤية واقعية، في كل ما يخصه ويخص مجال عمله من شؤون شخصية وإدارية عامة. كان شديد الدقة، قوي المراس، كثير الهلوسة الفكرية، حاد الإحساس، وقد منحته سماته دافعية لا تلين، فاعتمد على ركائز قوية سندته، وشدت وثاقه إلى حقل التجديد والإبداع المستمر، حيث لا مكان للجمود، ولا وقت للتكرار.

ولأنه كان ناجحًا في عمله، لم يكن من المستغرب أن تحيط به المعجبات من كل صوب، ينسجن حوله خيوط الإعجاب بصمت، دون أن يجهد نفسه في البحث عن شريكة حياة. فقد شاء القدر أن تنبت زهرة الحب في قلب إحدى موظفاته الحسناء، تلك التي طالما تأملته في خيلائها، تراقب خطواته بثبات، حتى بعثرت فرص سعادتها أمام قدميه، فتعثر بها دون قصد، وانتبه فجأة إلى أريج فتنتها وسحر بريقها.

تفتحت نوافذ أحلامها على مصراعيها، وتلقفته بشباك حسنها في أول طلة له أمام نوافذ أشواقها الرهيفة، فاستفاق هو على جمرة الآهات التي نشبت في حشوة قلبه، واستكان على قبسٍ من الود والنجوى، تجربة لم تعتريه من قبل، ولم يتذوق

مرارة عذاباتها، إذ كانت مختلفة تمامًا عمّا تحجر عليه ذهنه من تطلعات غارقة في دهاليز العمل والمناصب.

كانت تجربة فاصلة، لا تشبه سواها، فصلت بين ذاته وعمله، بين رتابة الأيام وومضة الإدراك. نفضت غبار الروتين عن فكره، وأزاحت ستار الجمود عن روحه، فغدا كمن استيقظ من سبات طويل، يحدق في الحياة بعين جديدة، ويستنشق عبيرها بشغف لم يعرفه من قبل.

أبهرته لآلئ التوباز وشفق العقيق المتناثرة حول فتنة حبيبته، فغدا قلبه مرآةً تعكس وهجها، وعقله مسرحًا لرقصات حضورها. لم تكن مجرد علاقة عابرة، بل كانت ولادة جديدة لذاته، انبعاثًا لعاطفة طال كبتها، وانعتاقًا من أسر الجدية الصارمة التي طالما حكمت أيامه. كانت أول تجربة له، أول مرة تلسعه نحلة الحب، حينها شعر بألم غزها، وبحلاوة شهد عسلها. ذلك الألم الذي لا توصف همساته، ولا يُفكّ شيفرة صمته، ولا يُطفأ سحر سكونه.

غص في هيامه، تذوق لسعة الأشواق، حتى احترقت زغب مشاعره بنار الصبابة ونار الجوى. لم يعد يحتمل ذاك العصف الأهوج المنبثق من جوفه، ومن مفاتن سحر فاتنته، ذلك الذي عبث بمقدرات حياته، فاستسلم صاغرًا لهواها، رفع الراية البيضاء أمام سيل موجها الهادر، لم يحتمل قسوة لاحظة هند، ولا جمرة عقيق شفتها، ولا قنديل سمير وجناتها. مثلما احتار في بريق أنفها البلق، احتار في شعلة

قوامها الباهر الرشيق، خضع لاستمالة مشاعره، لما أضفتْ على قلبه من صِرر وتأتأة شغاف لم يحتمل غيثه.

تلك اللهبة من الأشواق دفعته إلى أن ينظر بجدية لخارطة مستقبله الجديدة، أن يفكر بإمعان وبثقة تجاه من فطنته على ذوائب الحب، أن يغير من سلوكه ومن مراكب أبحاره تجاه ذلك المرفأ. أن يصارح سلوة هواه ومبتغاه بحقيقة مشاعره المتدفقة، أن يكسر حاجز الصمت الزجاجي أمام عبثية الود العارم واصراره الذي يجتاح كيانه. عسى أن يجرف مخلفات النسيان، وفضلات الذات، وأهوال الفكر وأحواله المركونة في طرقه. عسى أن تستقر به الذات الملهوفة، والأنا المستبدة، على قامة صبره، فقد طوِقَ بسيل من الود المهول، فرفع عاليًا صواري أعلام رغبته فوق كل المراتب، متجاوزًا كل حدود التردد.

في المقابل، النار التي كانت تبدو هادئة في أركان هند، لم تكن كذلك في ذاتها؛ غدتْ جمرة متقدة، أخفتها في ديجور سرها، لتوقد بها صبابتها. ذرت رماد الصمت في العيون، وظهرت بين الملأ تفاحة ناضجة، يشتط دخان سحرها من أبخرة المعارف المجاورين لها، ينتشي أريج الحب في أروقة العشق بشيء من رعاف الشوق، ليزيدها ألقًا وبداعة واهتمامًا.

كانت النار تبدو زرقاء، لاسعة، مجنونة، أحرقت جوارحها، ضوّرت فتنتها في أعماقها، ألهبت فكرها، شغلت قلبها، جعلتها تلوذ بحيرتها في بحر من الصمت والسكون، وذلك

بعد أن جلدتها الوحدة، مما أدى إلى عشعشة الغيرة الجامحة في لفائف أعماقها، فبانت كزهرة الصبح، جذابة أمام الفراشات المارقة.

بتقربه منها، كأنه كشط طبقة الرماد عن ذلك الصمت القابع في وجه رجائها، كأنه تحرش بها تحرش الريح بالزهرة، فبانت ترقص في ذاتها، تميل في مشاعرها ميل الغصن، حتى أدرك هَبة النار المشاطة من جمر أصدافها. عندها اتقدت حرارة الأشواق على ضفاف الوجد، فاشتعلت اللحظة، وتوهجت الأرواح، وذابت المسافات بينهما، ليغدو كل منهما مرآة الآخر، وصدى نبضه، وامتداد شغفه.

وعلى منصة الود، استسلم لها، استسلمت له- فشط النور الساطع من فتنتها على أرجاء فكره وقلبه.

كانت تلك المفارقة التي حملتها صدفة اللقاء كإبرة تخدير، تسللت إلى أعماقه فأنسته همومه ومشاكله، وأيقظت فيه توقًا جديدًا نحو المستقبل. لم يعد يلتفت إلى الخلف، بل صبّ جلّ تفكيره في بناء سقف من المحبة يظلّل حبيبته، ويحتضن أحلامهما المشتركة. غدت فرص اللقاء فسحات دائمة، تتجدد وتزهر، تبهج حياته وحياتها، وتغذيهما بفيض من الآمال والسعادة. وما لبثت تلك اللحظات أن نضجت إلى زواج ميمون، مقرون برغبة جامحة من الطرفين، محفوف بفرح الأهل والأصدقاء، كأنما القدر نفسه بارك هذا الاتحاد.

زوجته الحليمة لم تكن امرأة عادية قط. جمالها وسحرها الأخاذ كانا مجرد مدخل إلى شخصية مثالية، صقلها والدها الوزير منذ نعومة أظفارها، فغرس فيها مفاهيم العلم، وأروى فكرها بفيض من الدراية والمثابرة. حصّنت ذاتها بالدين والعلم، وارتدت ثوب الثقافة والأناقة، حتى غدت مثالًا للكمال والرقي. مهندسة ناجحة في مجالها، متألقة في حضورها، متزنة في فكرها، جعلت من بيتها محورًا لا يُغادر، ومن زوجها رجلًا لا تستهويه مغريات الدنيا ولا سهراتها، بل وجد في دفء بيتها ملاذًا وسكينة.

أما هو، فكان كالنبتة المجنونة من المتسلقات، كالسرخس واللبلاب، يتسلق منازل المناصب بعزيمة لا تلين، مخلفًا وراءه رغبات زملائه، متقدًا بنشاطه، متزنًا في هدوئه، راسخًا في رزانته. زاحم الظروف الماجنة فغلبها، واجه العواصف فاستكان في برجه دون أن يتزحزح قيد شعرة. شغفه بالعمل كان وقوده، ومغرياته كانت زاده، ارتدى ثيابها حتى دقّ مسامير صبره في ألواحها، ورسم جداريتها بإتقان، دون أن ينحني أمام صعاب الحياة.

كان يمشي واثق الخطوة، متمالك النفس، يعرف إمكاناته، يحلّ عقد المسائل اللفيفة بيسر، يبسطها، ويجعلها كما لو لم تكن من ذوات العقد. كآلة حاسبة، جعل الحلول رهينة بين يديه، وضب متطلباته، ورتّب جداولها ليسهل عليه المنال، فكان النجاح حليفه، والتقدير رفيقه.

هكذا تدرّج في المناصب حتى بلغ قمة الهرم التي تأملها، وتوّج مسيرته مديرًا عامًا لشركة بترول الوسط المرموقة. أصبح مسؤولًا عن قطاع غني ومهم، يأتمر تحت ظله كوكبة من المهندسين والعمال المتميزين، بثقافاتهم المتنوعة وأعمارهم المختلفة، رغم صغر سنه. كان قائدًا بالفطرة، ملهمًا بالخبرة، ورمزًا للنجاح الذي لا يعرف التوقف.

كان خفيف الظل، حسن الوجه، سريع البديهة والنكتة، لا تفارق البسمة ثغره، ولا تغيب البهجة عن حضوره. أينما حلّ، حلّت معه الألفة، وانفرجت الأسارير، كأنما يحمل في طلعته مفتاحًا للفرح. لم يُعرف عنه يومًا أنه شكا حزنًا أو عناءً، أو أنه عانى مأساةً تُذكر، فالعقد تنفر من طباعه، والمآسي لا تجرؤ على ملامسة روحه. كأن الله قد جنّبه عذابات الدنيا، وإن مرّ بها يومًا، فإنه لم يمنح الحزن فرصةً ليترك أثرًا على وجهه أو نبرةً في صوته.

في ليلة رأس السنة الميلادية، أقام احتفالية بهيجة، تزامنت مع مناسبة تسنّمه منصب إدارة الشركة للعام الجديد، بعد عامٍ حافل بالإنجازات. لم يكن الاحتفال مجرد مناسبة عابرة، بل كان كرنفالًا حقيقيًا شارك فيه جميع منتسبي الشركة، حيث وزّعت الهدايا والجوائز التقديرية، ومنحت الترقيات للمتميزين الذين بذلوا جهودًا استثنائية في خدمة المؤسسة.

كان يمكن للاحتفال أن يمرّ كأي مناسبة رسمية، لولا براعة السيد جميل، الذي خطف الأنظار في طلّته على المسرح، وأبهر الجميع بما امتلكه من مواهب براقة. اسمه لم يكن

مجـرد لقـب، بـل انعكـاسٌ لوسـامته وسـلوكه، فكـان جمـيلًا فـي هيئتـه، راقيًـا فـي حضـوره، متألقًـا فـي حديثـه، حتـى غـدا فقـرةً رئيسية في الاحتفال، رغم تنوع فقراته.

فـي طلّتـه، لمـس قلـوب المتميـزين الـذين نـالوا نصـيبًا وافـرًا مـن التقـدير، كمـا لمـس حقـد الحاسـدين الـذين أضـناهم البـؤس، وأعمـاهم الغـلّ. حـين وقـف علـى المسـرح، كانـت العيـون تترقّـب منـه كلمـةً تقليديـة، إلا أنـه شـعر بـأن بعـض الحضـور، ممـن هـم أقـدم منـه وأكثـر خبـرة، يضـمرون لـه الاسـتياء، لا يـروق لهـم أن يتسنّم منصبًا رفيعًا في هذا العمر.

ومـع ذلـك، لـم يفكـر فـي خصـومتهم كنـدّ، ولـم يفـتح بابًـا للمنافسـة المغرضـة، بـل آثـر أن يكسـر مجـاديف أفكـارهم السـامة بلطافتـه، أمـام المـلأ، وبـذكاءٍ يختـزل قـدراتهم والـزمن معًـا. لـم يكـن الـردّ صـداميًا، بـل كـان راقيًـا، يحمـل فـي طياتـه رسـالةً مفادهـا أن النجـاح لا يُقـاس بـالعمر، بـل بـالإرادة، وأن القيـادة لا تُمنح، بل تُكتسب.

كلمة قصيرة... لكنها أضاءت القلوب

شـرع بأسـلوب جـدير، كسـب بـه ودّ الجميـع، وأطلـق كلمتـه القصيرة في مستهل الاحتفال قائلًا:.....

"هـذه الـدنيا سـتزول بمـا فيهـا مـن مناصـب. والحمـد لله أننـا عشـنا لهـذه اللحظـة ورأينـا أول يـوم مـن السـنة الجديـدة. لـذا علينـا أن نتقبـل الواقـع ونتعامـل معـه كصـديق، عسـى أن يسـاعدنا الحـظ

على تجاوز محن الغد بيسر. أرى نور صبحه قائمًا بيننا في وجودكم، رغم أن البعض لا يلمسه، إلا أني أراه يتلألأ في وجوهكم."

كان حديثه أشبه بنداء روحي، يدعو إلى مصادقة الزمن، وتحويل البؤس المتقوقع في النفوس إلى سعادة دائمة، ترفد الأفكار وتنعش الحياة. وصف ذلك الصديق المسالم بأنه هدية، وأن علينا أن نتصف بالفرفشة، نلهو بمشاعر جياشة، ونزيح هالة الحزن والكآبة عن محاجر العيون. فالبهجة تسحر القلوب، وترمم السعادة، والضحك من القلب هو مفتاح العلاقة التي جمعتهم بودّ في تلك اللحظة الفريدة.

قال إن اللحظة الواحدة تحمل كمًّا هائلًا من البهجة، وكمًّا مماثلًا من الحزن. دعونا نختار الفرح بشوق، لنطفئ شواظ النار العابثة في قلوب من لا يشعر بها. ففي اللحظة ذاتها، تتنفس الألوان، وتفسح في ربوعنا، فلنختر منها اللون الشفاف البهيج، لتلوين ظرف البعض الأدهم، حتى تروق لنا اللحظات القادمة.

شبههم بصيادي سمك، يمخرون عباب البحر، يتأملون الرزق، لا قائد لهم سوى المصلحة المشتركة. وسألهم: كم سيكون نصيب الرئيس من نصيب العامل إذا ما عصفت الأمواج وغرق المركب؟ وأجاب: النصيب سيتوزع بالتساوي. ومن هذا المنطلق دعاهم إلى مسح الضبابية التي توهم البعض، لرؤية الحياة بشكل أوضح، وأفضل طريقة

لـذلك هـي تصـفية النفـوس والضـحك الصـادق، لأن الضـحك علاج لكل داء عضال.

الضحك... رياضة القلب وسر الحياة

حـثهم علـى مـلء لحظـات الحيـاة بـالفرح، أكسـوها بالأمـل، أطربوهـا بالضـحك، وجردوهـا مـن هالـة الحـزن، فالصـحة والعافيـة همـا الأهـم. وأكـد أن الشـخص الواثـق مـن نفسـه تميّـزه ضـحكته، وقـال إنـه يتمنـى سـماع تلـك الضـحكة ليكـون فخـورًا بقيـادة الـواثقين مـن أنفسـهم. دعـاهم ليكونـوا رؤسـاء لأفكـارهم المفيـدة، وأن يطلقـوا العنـان لـذواتهم، فالثقـة هـي مفتـاح النجـاح في كل المجالات.

ضـحكة واحـدة... قلبـت المـوازين، بعـد كلمتـه، سـاد صـمت رهيـب لثـوانٍ، ثـم فاجـأ الجميـع بـإطلاق ضـحكة قويـة عبـر الميكروفـون: "هههههههـه"، هـزّت القاعـة، وزرعـت البسـمة علـى الوجـوه. كانـت ضـحكته غيـر متوقعـة، لكنهـا كشـفت عـن أسـلوبه، فكانـت ردة الفعـل قويـة، وضـحك الجميـع مـن أعمـاق قلوبهم.

دعـاهم لإطـلاق الضـحكة مـرة أخـرى، لكـن القلـة فقـط اسـتجابت اسـتحياءً. فأعـاد الطلـب قـائلًا:...."لا لا... أريـدها قويـة جـدًا، تخـرج مـن حشاشـة القلـب، حتـى يلفـظ القلـب سـمومه. أول سـيدة تطلـق ضـحكتها بقـوة، لهـا هديـة ثمينـة، قبلـة مـن خـدي، أو تختار مكانها... هههههههه."

ضحكوا بعفوية، دبّ المرح في الوجوه، وسعدت بعض النسوة بكلامه اللطيف. قال:...

"هيا استعدوا: واحد – اثنان – ثلاثة... هههههه."

تضاعف عدد الضاحكين، لكنه أراد المزيد، فقال:...

"هناك من أصابه الخجل وسكت، لكن الضحك ليس له عمر ولا شكل. لنُعيد الكرة، لا نريد مريضًا بيننا، فالضحك رياضة للقلب، يخفف الضغوط، يخفض ضغط الدم والكولسترول، يعزز المناعة، يسكن الألم، يزيل القلق، يريح الذات، يساعد على التئام الجرح، يطيل العمر، يشجع التواصل، يلهم الإبداع، ويرسّخ المحبة بيننا. دعونا نحب بعضنا... دعونا نضحك."

قال: "هيا استعدوا للمرة الأخيرة... واحد – اثنان – ثلاثة..." فانطلقت ضحكة جماعية هائلة "هههههههههههه"، راقت استحسان الجميع. عندها اختار امرأة كبيرة السن، وقال لها:...

"أنتِ يا أمي، لمحتك كنتِ البادئة بالضحك، تعالي وخذي هديتك من خدي... هههههههه."

رغم أنها لم تكن البادئة، لكنه أراد شدّ انتباه الجميع إليه. وعندما قبلته، سألها:...

"بالله خبريهم، كيف وجدتي القبلة؟"

فأجابت ضاحكة:...

"ألذ قبلة مرت عليَّ. هههههههههههه."

ضحك الجميع، خاصة النسوة، ثم قال:

"هناك مقولة لو أعرف من قالها لأحرقت جلده ضربًا."

فسألوه: "ما هي؟"

قال: "يقولون الحب أعمى... هههههههههه."

ضحك الجميع، ثم تابع:

"أي غبي أطلقها؟ الحب عنده خمسين عين، يبحث عن الصغيرة قبل الكبيرة، لا يترك شعرة إلا ويدرك جذورها. الحب له مخارج لا يشعر بها إلا من تعلق بكفافه. الحب ليس له شكل ولا لون، إنه هلامي يتكور مع الرغبات، كالضباب والهضاب، لا يُمسك ولا يُتجاوز. الحب كائن حي، له لون وصفات وحيوية وبراعة وطرافة وخفة دم. له مجموعة عيون. بالله عليكم، هل الحب أعمى؟"

فأجابوا بصوت واحد: "لا لا لا لا."

"أتحدى كل النساء إن لم تكن لهن رغبة دالة في شخصي الآن. لكني حزين جدًا!"

سألته إحداهن: "لماذا؟"

فأجاب:

"لأنـي لـن أسـتطيع الـزواج مـنكنَّ، سأشـبع ضـربًا مـن قبـل زوجتي، الغيرة مرة، والذي لا يغار... حمار."

فضجّت القاعة بالضحك، ثم سألت إحدى العجائز بعفوية:

"تزوجني يا أستاذ؟ هههههههههههه."

فأجاب:

"إن كيدكن لعظيم. هههههههههه."

كـان فصـلا يعـد درسـا فـي القيـادة... وضـحكا لا يُنسـى... فصـلًا مـن الضـحك قـلّ نظيـره، مـع مـدير شـاب عـرف مـن أيـن تؤكـل الكتـف. بتلـك الملاطفـة، قـصّ أجنحـة أعدائـه، وبأسـلوبه السـلس، قـدّم درسًـا مجانيًـا لـلأزواج ثقيلـي الـدم، ليعرفـوا كيـف يتعـاملون مع الجنس اللطيف بعفوية وابتسامة.

****

مـن طبيعـة الإنسـان أنـه لا يسـتقر علـى رزق، ولا يرضـى بـالركود؛ فحـب المغـامرة والتجربـة يسـكن أعماقـه، يدفعـه لتغييـر نمـط حياتـه، لكسـر حـاجز الـروتين الـذي يرافـق السـكينة والظـرف. وخـلال مسـيرته، تعـرّف علـى شـلّة مـن الأصـدقاء، وجـد فـيهم نكهـة جديـدة للحيـاة، شـعر معهـم بـنفَس مختلـف، أكثـر بهجـة وحيويـة، كـأنهم نسـمة حريـة هبّـت علـى واقعـه المتقوقـع بعد الزواج.

كل فرد في تلك الشلّة كان يحمل طابعًا مغايرًا لطابعه، مختلفًا كليًا عن مسلكه وتأملاته وتطلعاته، وعن القيم والمبادئ التي تربّى عليها. اختلافات طبيعية، نشأت بفعل الظروف والبيئة المحيطة، فالله لم يخلقنا متشابهين. ومع ذلك، أضفت تلك الصحبة على حياته ألوانًا رنّانة، صنعت له أجواءً من المرح وسط عقد الروتين، جردته من ملل البيت وجدلية الوظيفة، وانتشلته من الإهمال والكسل الذي تراكم بفعل الجهد الفكري المبذول.

وجد نفسه بحاجة ماسّة إلى تغيير نمط حياته، إلى مسايرة جميع الأطياف، لتتعمق أفكاره بمثيرات الحياة المتنوعة، وليكون أكثر حصانة أمام مغرياتها، يتعلم ويتسلق خصوصياتها، عسى أن تزيده خبرة ومعرفة في العمل والتعامل مع الناس كافة.

افتتن بهذا التغيير، وسُرّ بالسعادة التي أضفت عليه نشاطًا روحيًا ونفسيًا، فأصبح صاحب دعابة ونكتة دائمة، وانعكس ذلك على سلوكه وتصرفاته بشكل إيجابي. ومع تعمّق الصحبة، بدأت تدغدغ أطراف سره، وبفرط ثقته بنفسه، كان يظن أنه قادر على تجاوز عقد الحياة متى شاء.

لكن سهراته وسفراته مع تلك الشلّة بدأت تتجاوز الحد، ومع تكرارها، تولّع بها شغفًا، وزادته ألقًا وهوسًا بالنشاط، سواء في العمل أو في علاقته الزوجية. رفدت سلوكه بحقنة من كلوروفيل الشوق وأوكسجين الرغبة الدائمة، ليستنبط مكنوناتها من تلك النوابع الجديدة في حياته. ومع إفرازات

تلك الصحبة، التي تطبع بطبائعها، حافظ على نجوميته المتلألئة في سماء الشركة.

ولكن...

أعين الأعداء لا تنام. تسرق الومضة من خيوط الشمس، وتنفذ إلى الهدف بسهامها، تتشبث بكل ما للحقد من سنن، كي تدرك مآربها. تربصت له، نصبت شباكها في طريقه، وعدّت فرصها لصيده. لن يهدأ لها بال حتى يسقط في المحال وتبلغ غايتها.

فالإنسان ضعيف بطبعه، خطّاء، يهفو من حين لآخر، حتى وإن كان يعيش زهوه ونشوته. أحيانًا يدفعه فضوله لخوض تجارب تسيء لذاته، وتودي به إلى متاهة، فتكون حلقة وصله ضعيفة بين "الأنا" والغاية، بين ممارسة التجربة وحب الاستطلاع. فضول تسلّط عليه كسلطان الكرى، جره من واقعه، ليتكيف ويتلذذ بتلك اللحظات الخاطفة، العابرة لموانع فكره.

عندها، شعر بذاته تتراجع إلى موقعها الأول، بعد أن تشبّع من ذلك الفضول، ليكتشف قرف قيح النتن المنبعث من التجربة، ويعود إلى ذاته متأملًا، نادمًا، متسائلًا عن الثمن الذي دفعه مقابل لحظة عابرة.

وجميل كان قد سمع عبر زملائه الجدد عن العلاقات الجنسية عبر مواقع النت، فحاله حال بقية الشباب، ود أن يستطلع

ويتعرف على شكل هذه النماذج التي تلسن بها أفراد شلته وما نوعها؟ ما خواصها؟ وماهي حجم المتعة التي سينالها؟.. أنها مجرد إهواء وتسلية لا أكثر.

في تجربته حاول التعرف على خفايا النت، بحيث يكون ملما بكل صغيرة وكبيرة من ما تحتويه من أسرار، كي لا يُحرج من قبل زملائه بمعلومة لا يعرف أسرارها وخفاياها، فأوعز تلك الممارسات خارج نطاق الموبقات، كونها علاقات غير مباشرة عبر الشاشة، دون اتصال بدني بين الجنسين.

وكان قد أرتبط بعلاقات وتشعبات عميقة وكثيرة في برامج التواصل الاجتماعي، كالفيس بوك والتويتر والأسناب شات والانستكرام والواتس آب وو.....الخ، مع معظم موظفي الشركة. إضافة لعلاقات أخرى خارجية تضم معارفه ورؤساءه وعدد آخر خارج حدود العمل من معارف وأقرباء....

أحيانا الأنسان لا يسعى خلف تلك العلاقات السرية المشبوهة، أنما تفرض عليه من خلال الاعلانات التجارية التي تبرز أمامه صدفة، فتقدم نفسها وتحتك بكل متميز، بل أحيانا تكون مدسوسة من قبل شلة الأعداء الحانقين عليه، لغرض التجسس والإشهار والابتزاز بشكل مدروس.

وفي أحدى المرات رنَّ هاتف النت على حاسوبه الشخصي في برنامج طلبات صداقة، وقد كانت استجابته طبيعية لفتح

الحوار، ربما يكون المتصل قد أتصل لأمر هام أو يكون من ضمن المعارف.. الخ.. لم يتوانى في فتح صفحة الفيديو حتى سقطت عينيه على وجه حسن، جميل، لم يتعرف عليها مسبقا، تنعم برشاقة الجسد، بزغت بوجه كوجه الشمس، كانت بدفئها وألقها، جردته من واقعه المثلج. جسد يمتلك فتنة الحرير الناعم الملمس، السحر يتسلق طبقات المحاسن في معانيها، تمتلك هيافة في أنوثتها، وطيبا في كلماتها، ورقة في حديثها وطراوة في طبعها.

شابة بعمر الزهور، محزمة بأسلحة الأنوثة الفتاكة، بزغت له كحورية خرجت من جوف الأنترنت كقمر تهادت وسط الغمام، حركت زغب مشاعره.. حورية شقراء، جذابة، ناعمة المعالم، واسعة العينين، كرزية الشفاه، بارقة الصدر، كقطة شبقة.

أخذه الفضول في تتبع غوايتها، وإذ بها ترسل له قبلة هوائية ملئها عذوبة وأنوثة، أراقت نبضه. ما أن أنبرت حتى خلعت حاضنة الثدي، لتبرز جزء من سحر جمالها المخفي، أغرته بطراوته وتكور ثديها، بانت صدفية اللون، وردية الحُلمة، كلآلئ تبرق بلونها الزئبقي. ثم عرت له الساقين الملتويين كأفعى كشفت له عن ثأدة الفخذين مكتنزين بثورة الشبق، لغر الجسد وفتنته تمكنت من الاستحواذ على مجانته، أن تنفذ بهدوء لفكره، أن تنقض على عفويته، أن تشيع فوضى عارمة في قلبه. هكذا أوثقته بحسن معالمها، أوقعته بشباك مباهجها..

مـن جانبـه ود أن يكسـر تلـك الحـواجز التـي تمنعـه مـن الوصـول إليهـا. ليغـور فـي أعمـاق تلـك المبـاهج، علـه يكتشـف أسـرار تلـك الصـدفية المنزويـة فـي قيعـان البحـر، أن يغـرف نظـرة مـن لؤلؤتهـا. ربمـا يصـل معهـا لعلاقـة وطيـدة مسـتقبلية، يـؤم بجنانهـا وتـؤم ربيعـه، لـذا شـجعته، طلـب منهـا المزيـد. ودهـا أن تخلـع بكينهـا (لباسـها الـداخلي)، ليشـعر بحـرارة الشـمس!! لكنهـا اشـترطت عليـه أن يسـتجيب لغرائزهـا هـو أيضـا، أن يريهـا عمـود النـور، فهـي أيضـا محشـوة بالرغبـة والشـغف مثلـه. قالـت له:...

أنـت وسـيم جـدا، لاطفنـي مثلمـا ألاطفـك، ألا أسـتحق منـك الإطراء؟

مثلما ترغبين، حقا أنت جميلة أغريتني بحسنك.

هيا؛ دعنا نخلع سوية.

قد لا أعجبك؟

دعنـي أشـعر برعـدة قضـيبك أمـام مبـاهج انـوثتي، هيـا نخلـع معـا لأريك فرجي وشرجي.

هيا..

تسـابقا فـي الخلاعـة، مـا أن نـض لباسـه وأظهـر محسـوباته الخاصـة، حتـى تعمـق ذلـك الفضـول مـن طرفـه، فغـاص فـي وحـل تلـك الملاطفـة دون أن يـدرك. ففـي اللحظـة التـي غشـي

بتلك المفاتن، كشفت له طراوة زهرتها، فأستقام قضيبه، ما انفكت؛ انقلبت على البساط كثعبان لتبرز له التضاريس جسدها، طلبت منه تقليدها...

هكذا وقع في الشرك؛ حتى زاغ جميل بإستمناءه على وقع إغرائها... لم تدم العملية سوى ثوان معدودة، ومن ثم قطع الاتصال الفديوي لتسأله....

ما رأيك هل نستمر؟

لم يستجب لها، شعر بأنه قد غص في الوحل، أحس بأنه كان تافها في تلك اللحظات، جرفته تيارات الفضول إلى مستنقع الرذيلة، جردته تلك الآفة من قيم الأخلاق ومبادئ الدين التي أتصف بها، توسخت ورقته البيضاء بسواد عمله. أستفاق على عجل ليستدرك كرامته التي تلطخت بوحل تلك الغانية، استطاعت أن تعبث بمشاعره، أن تلوك وسخها بقيمه، حتى نسي كرامته ومكانته أمام تلك الثعبان، أنساه الشيطان حكمته وأنسته هي بشيطنتها قدره.. حين بحث عن أسمها المزور في قائمة الأسماء، لم يجد لها حضورا ليحضرها..

حينها جاءته رسالة على موقعه الخاص، تفييده بأنه قد أصبح صديقا لنفسه، لقد هكر موقعه وسرقت كل ملفاته ومعلوماته وأسماء أصدقائه. كما أرفقت مع الرسالة مقطع الفيديو المسجل لتلك الواقعة المتبادلة بينهما. تفييده الرسالة بأنه وقع في الفخ، وهم على استعداد للتفاهم معه مقابل مبلغ كبير من

المـال يدفعـه لهـم أو القبـول بالفضـيحة. أنهـا عمليـة ابتـزاز واضحة...

لـم يـرد علـى تلـك الرسـالة، ألغـى حسـابه الرسـمي مـن عـالم الفيسـبوك، لكنـه لـم يسـتطع أن يلغـي حسـابه الآخـر الـذي بـات بحوزتها وحساب معارفه معها..

تلـك العمليـة أدخلتـه فـي صـراع نفسـي شـديد، تـأزم نفسـيا، انكـدرت طاقتـه أصـبح أشـبه بالنبتـة الذابلـة لا رونـق فيهـا، صـارت جذوره تبحث عن شربة مـاء تبلل ثغره، صـار يبحث فـي أعمـاق الفكـر عـن منفـذ ليهـرب منـه لواقعـه الحقيقـي، أفترسـه النـدم، أنهـار سـقف طموحاتـه، همـد نشـاطه. أضـحى لا يجـرء علـى التحـدي قط....أيـن المفـر، أنـه مهـدد بالفضـيحة أمـام كـل معارفـه ووزارتـه، المـوج أعتلـى أشـرعته، الكـدر صـعد وتيره، فباء كمن يسعى لنجاته بموته.

فـي اليـوم التـالي لـم يـذهب للعمـل، لكـن صـوره سـبقته، فلـم يـتمكن مـن أن ينكـر الحالـة إطلاقـا. محبيـه لازمـوا الصـمت، فيمـا أعدائـه وشـوا بالفضـيحة وطبلـوا لهـا بـين المـلأ، بـاتوا يطالبونه بالاستقالة...

بالفعـل تـم رفـع تقريـر أخلاقـي لمجلـس الـوزارة، ومـن ثـم تـم إحالتـه إلـى التقاعـد، مـع وضـع تحتـه أسـمه خـط أحمـر ضـمن الملاحظات، سيمضي معه لنهاية العمر.

أمـا زوجتـه التـي كانـت تنظـر لـه بعـين الاعتبـار، اشـمأزت منـه، شـعرت بأنـه لـيس جـديرا بهـا، لـذا فتـرت العلاقـة، ثـم بترتهـا.. فتحــول ذلــك الطــائر البهــيج إلــى عنصــر غــامض، معقــد، معزول، مبجل بالحزن والكآبة مسطول في الشوارع.

3- هسيس الليل

أرقٌ بليغٌ أسهدَ الذهنَ

أندى خيالا في الحدق

أسكنني في باطنَ الظنِّ

حيثُ لا يقينَ ولا شفق

لستُ على ما أنا

منذ أن رهقَ الودّ قلبي

منذ أن دنا الصمتُ من خاطري

خقَّ الفؤادُ فيضِ من التعب

×××××

كثيرًا ما شكتْ ذاتي الهائمة، وأرّقها طيف الحبيب ونار الجوى، تستنجد بالقدر ليعينها على بلادة صبرٍ مرٍّ شقاه الهوى. تمسكتُ بخط العناد طويلًا، حتى لهث الشوق من جور النوى، تبع أثر الحلم في دروبٍ في دروب عقيمة، بين شكٍ ويقينٍ يردع جماحي بمن أهوى.

ران فـي داخلـي هـاجسٌ خفـي، حـرّك نوافـذ الغـيّ وأوقـد جمـر الأرق. بـتُّ أسـيرُ كـالمجنون خلـف مسـاءات الهـوى، طفـلًا يشـهق بالشـوق والشـبق، أبحـث عـن صُـرّة فجـرٍ بـين أزقّـة العتمة، عن الحبيب الغافي في ظلال الحدق.

أطرقـتُ بعيـدًا، حتـى ماجـت ذاكرتـي بصـورٍ شـتّى، شـممتُ عبـق الجنـون، ورائحـة الـودق. فأسـرجتُ الفـلاة بفتيـل قلبـي، حيـث لا أبـالي خطـرًا، ولا جلـدًا، ولا غسـق. رغـم أنـي لـم ألـتمس اعتبـاراتي الحقيقيـة، لكنـي بقيـتُ سـليلَ ظـنٍّ وقلـق. إلا أنـي وحيـدا خضـتُ عبـاب البحـر، دون أن أخشـى بـلادة الغـرق. تركـتُ كـل شـيءٍ مـن أجـل الهـوى، حتـى أغشـتني غبـرةُ الشـيبِ والأرق.

وفـي سـعيي، بقيـتُ ألـوذُ لـوذَ الحمـائم بـين الجفـن والحـدق، أسـيرُ وحيـدًا فـي دربٍ مهجـور، كـأنني أقتفـي أثـر المجـانين، أبحـثُ فـي عهدتي عـن سرّ الهجـود، عـن عشـق الأشـجار فـي البسـاتين. أسـيرُ ومعـالمُ الطـرق تميـدُ بـالنوى، طـرقٌ لـم تطرقهـا قـدمي مـن قبـل، وكـأنّ قـوةً خفيّـةً تقـودني لاكتشـاف أسـرار الـدروب والأفـق، عصـفُ شـبقٍ يرشـدني إلـى حيـث نـار الهـوى، رغـم المصـاعب والقلـق. كـادت أن تزهـق أنفاسـي لـولا الوجاهـة التـي طافت في ذلك النزق.

لأول مـرة لا أمسـك بزمـام أمـري، ولا أشـهد سـحر الرجـاء ولا أسـمع صـوت رنـيم الـودق، لأول مـرة أتخـبط بوحـل الظـن، بـين أن أنجد ذاتي أو أتبع هالة الشد في الشفق.

تأوهتُ، تثاءبتُ، كأنما الروح لا تحتمل جوفها، تائهة في دوامةٍ من سُدُمٍ لا تنقضي. أهجس بالأشجار تخلّت عن فتنتها، تجردت من طابعها وظلالها، تترنّح تحت خفق ظلامٍ دامس كأشباحٍ تعيق مسعى الذات في تلك العتمة، تهزّ الخواطر بسحر الخوف والأرق.

كنت أسير على وهج النجوم المتلألئة، أستند في خطوي إلى سذاجة الروح المنهكة ونار الجوى، فتراءت لي قناديل ثورةٍ مبتهجة، تشتدّ أنارتها حين يشتدّ نزق الريح. أخالها تتأرجح مع صخبٍ داخلي، وخوفٍ مشاطٍ في الأعماق، كأنها تتناغم مع حجم العناء الدائر في خلدي.

اقتربت من الأشجار، فإذا بها متعرّية، ضخمة كأنها معلّقة بسقف العتمة، كشياطين تحرس الدروب من الحمقى والعبث، تشكو الوحدة، والريح تعصف بها كأنها تواسيها. لم أستطع تفسير ما حولي، ما إن أسمع أنينها، حتى يعود إليّ وجلي وشرودي. بتُّ أترقّب الخطوة، وهي تمضي نحو هدفٍ غامض، لا أملك تحييده، ولا أجرؤ على تجاهله...

في متاهة الخطى، حيث يتواتر الصمت وتتهامس الأرواح، هجستُ بذاتي تصغي لصدى الأنا، ذاك الصوت المرتد من أعماقٍ غارقة في عربدة الخوف، يتخلل خشخشة أوراق الشجر المبعثرة على الطرقات كأنها رسائل من عالمٍ آخر.

رأيتُ، بأمّ عيني، خيالًا هلاميًا يطوف حولي، لا يسعى إلى إيقافي، بل يرشد خواطري نحو هدفٍ غائر في دماسةٍ لا

تُرى، كأنه نداءٌ من الغيب، أو صدى رغبةٍ مدفونة في جوف الصمت.

ومع مرور الزمن، زادت الحلكة حلكة، كأن الأشجار المبثوثة قد عست الدروب، فصبغتها بشجونٍ داكنة، وألقت في قلبها العتمة فزادتها دماسة. تراءت لي عن بعد كالجبال شامخة، كأوتاد شاخصة، كعاهرات الليل يجذبنّ المستظلين إليهنّ، لا رغبةً فحسب بل هروبًا من الوحدة اللعينة والخوف الدائر في الطرق المجهولة.

لم يكف شفيف الحف، ولا عبث الريح المجانة، عن تمزيق السكون، حتى دفقت الوحشة تخزق خضم ذلك الهدوء، كأن الصوت آتٍ من عمقٍ مجهول، تدركه غايتي وإن غابت ملامحه.

تخيلت الأشجار أشباحًا طريدة، طناطل من الجن تتبع هواجسي، تارةً تسير برفقتي، وتارةً ترشدني، تبدو كمأوىً حين أحتاج، ورفيقةً حين أضل، ملاذًا من أنياب العتمة التي تفترسني دون أن أشعر بذلك، لعدم امكانية هضم محيطها.

هذيانٌ عجن مشاعري بالتيه والغربة والغرابة، بالخوف المبرر وغير المبرر، كأني قاصدٌ وسطًا مجهولًا لم اكتشفه مسبقا، متسرنمٌ بالليل، تتحكم بي الأهواء، مارقٌ في صرة زمنٍ تتنافى مع توقعات الظن.

أهجس بها حالة هستيرية، عسرت ولادة مآربي، فعشتُ بين انفصامٍ وتردي، متبعًا حسن الظن والنية، كمن يبحر في بحرٍ لا يعرف له شاطئًا.

تراءى لي الخوف ككائنٍ أسطوري، يتبع قدري، يرافقني في كل لحظة، يولد معها ويموت معها، لكنه لا يختفي، بل يستقر في سرمدية الذاكرة. اللحظة التي تموت، تعيش فينا، بينما المزاج حين يتغير، لا يعود لجذوره، كأنه غريبٌ عن ذاته. حين نسترجع الماضي، نستذكر اللحظات المارقة بتأنٍ، كلحظات الطفولة التي بقيت عالقة، بينما المزاج كصبغةٍ تتأثر بالظرف، تتغير خواصها مع الزمن، فلا تعود كما كانت.

اللحظة احسبها ككائنٍ أسطوري، تموت حين تولد، لكنها تستقر في جينات الذاكرة، تُشيّد بروجا فينا، تلون السماء بلون رغباتنا ونياتنا، تمر كجذاذةٍ تجرح، أو كعبق وردةٍ يريح الأعصاب ويغري القلب... هجستُ باللحظة العابرة كأنها غزت ذاتي بوشم الحبيبة، رسمت لي فرصة حياة، تلونت بصفات الحب، رغم أنها قطرة في فضاء الزمن، إلا أنها تمكنت من استغاثتي، هجست بها بحرًا تقل مراكبي. بولادتها تمر علينا وجوهٌ جمة، تسرق من جذوتهم صفاتهم، تنشرها في سماء الكون، فتنعكس ظلالها علينا، فيكون لها وقعٌ إيجابي أو سلبي، كأنها ترفق إلينا بتأثير الأبراج، لا نعلم إن كان قدَرًا أم انعكاسًا لرغباتنا.

أحيانًا لا يدرك الفرد أهمية زمنه الآني، لبطء استيعابه، فتهرب الحقبة من بين يديه، ويسقط كحجر صوان في دوامة التيه، لا يعرف كيف يبدأ، ولا إلى أين ينتهي.

في تلك اللحظة التي هجست فيها بانفصال ذاتي عني، شعرت وكأنها سقطت في بركة زمن جديد، زمن لا يشبه ما ألفته من قبل. تتبعت صوت سقوطها، فارتقيت بكياني، وبدت لي حقيقة وجودي السامي تتجلى في سماء من أحب. حينها، تلمست وجهي، قدمي، أطرافي، وشعرت بهبة شوق تتدفق من وجنتيّ، وزفير ينفث من شدقيّ. لامست قلبي، فوجدت وثاقه مشدودًا بخيط من خوف، ينبض بقوة، يطمئنني أنني ما زلت حيًّا في دائرة الوحدة، لم أبتعد عن ذاتي كما أوهمتني ظنوني، والدليل أنني أرى الأشياء من حولي وأميزها.

لكنني افتقدت ذاتي في لحظات انسيابها فوق تلك البسيطة... أين أنا؟ إلى أين اتجهت؟ لا أستطيع تحديد مسارها وهي تتأوه في دهاليز العتمة. هجست بها كالثعبان ينزع جلده، يتجدد، يتبع التجديد، حتى تحولت إلى كائن هيولي، لا أشعر بوجودي كحقيقة، أبحث عن كيان غائر بين كومة الأشياء، عن "أنا" أغشت حدقي وهي تتخبط في دهاليز الذاكرة، وسط تلك العتمة دون أن أدرك مأربي.

مضيت أتبع ذاتي بين زحمة الأدغال وشعث الأشجار، أجاهر بقدري بين العتمة والوحشة، غاربًا إلى متاهة مغمورة في أعماق النفس الشريدة، حتى لاح لي ضوء ينبعث من صومعة قديمة، مهجورة وليست مهجورة... تبعت خيط ذلك

الضوء، أبتغي إدراك مرامه وجنونه في تلك الليلة العقيمة من ليالي الخريف الباردة. كنت أتتبع حالتي كذاكرة أسجل عليها ملاحظاتي.

وفي اللحظة التي ظننت أنني أدركت مرفأ الظن، وجدتني أقف على أعتاب اليقين، أمام باب معبد قديم. من بعض المارة عرفت أنه مسكون بالجن، ومع ذلك وجدت أناسًا يؤمونه، يتقصّدونه، يتبعون أدعيتهم وأمانيهم داخله. فغايات الناس ومآربهم لا تُدرك. ربما جاءوا يبحثون عن ذواتهم التائهة، أو يستكشفون ما خفي منها، باحثين عن لغز فتن إرادتهم، ليحيدوا عن الموبقات، جاءوا لينسفوا هياكل مشاكلهم وعقدهم هنا.

كثير من البشر يخفون في بواطنهم قروء مشاكلهم، يختلفون في السلوكيات والغايات والنية، بعضهم لا يدرك مأربه إلا حين يصطدم بالواقع، وقد يكون واقعًا مريضًا، مليئًا بالشعوذة والخرافة، أضابير من الضياع يتيهون بها في أولى خطواتهم.

وأنا، كأنني أصبحت واحدًا من هؤلاء الشواذ من البشر، أبحث عن أنصاف الحلول لعقد حياتي في ذلك المعبد. رأيت الكثير من الناس يتقصدونه، رغم إدراكهم لما يحتويه من غرائب وعجائب قد تكون مهلكة، لكنهم يتعنّون إليه لقضاء حوائجهم، وترسيخ عقائد عباداتهم فيه.

المعبد بدا كأنه مسجد أو كنيسة قديمة قدم البشر، لكنه حافظ على هيكله في تلك البقعة من الصحراء القاحلة، كنقطة استراحة تتقصّدها القوافل الراحلة نحو البيت الحرام، فنسجت حوله الأساطير التي أطرقت مسامعي من قبل.

دخلت الصومعة بين خائف مرتعد ومضنوك، حيث الخوف في الداخل يوازي ما ارتسم على وجهي، وما شعرت به خارجها. لم يكن يفصل بين الموضعين سوى جدار هلامي، لكثرة الكوات المخزومة فيه، وقد يكون فاصلاً حقيقيًّا بين الشك واليقين.

بدأ الشك يخزق ذاكرتي كضوء منبثق في السدم، يتسلق اللحظة التي أبتهج بها، يتحول من صيغة لأخرى: من هدوء لافتعال، لفوضى، لسكون، لملامة. جعل تركيزي يشذ عن رأسي كخيط دخان، لا ألتمس مخرجًا للعُقد المتشعبة في ذهني. الرعب خلخل ذرات أثير النفس، استلّ حواسي، شعرت بسواد أشعث، أنيابه عاجية، يلهو بفكري، بل نفذ إلى داخلي، إلى أحاسيسي ومشاعري.

خطواتي بدت مربكة وهي تجتاز محراب الباب، مرتعدة، وجلة، شريدة في داخلي، أود الاسترخاء لدقائق، لأطرد هاجس الوسن والوجل عن ذهني. وما إن اجتزت العتبة حتى سقطت عيناي على ألواح خشبية مرمية إلى جانب الحائط الأيمن خلف الباب. بحلقت بها، فإذا بها توابيت مركونة مع جدار السور، هجست بها تتحرك، كأنها استندت على أحد طرفيها، شاخصة بجبروتها تراقبني. تركت في جسدي رجفة

زمهريرية، أدرت مقود فكري وعيني بفعل الرهبة، تخيلتها معبأة بجثث موتى. هجست بصراخ مع صرير الريح، صفير يخترق أذنيّ، يخترق شباك القلب، يزيده خترفة وهيافة.

دخلت باحة المعبد وأنا أتبع الداخلين، وإذا بشخص طويل القامة يستقبلني بابتسامة عريضة، مرحبًا بي. مد يده إليّ محاولًا مصافحتي، رغم أن المسافة بيننا تزيد عن عشرة أمتار، إلا أنه كاد أن يمسك بي، شعرت بكف يده تكاد تمسك بتلابيب ثيابي لطول ذراعه.

حينها عرفت أنه جنّ المعبد، يرتدي بدلة رمادية وربطة عنق برتقالية. من سلوكه التمست طبعه المسالم، ربما يكون من المؤمنين بالله كما أشيع لي من بعض المارة خارج الصومعة. كأنه خازن المعبد.

حاولت أن أسايره، أن أبتسم له، رغم الخوف الطاغي على مشاعري والارتعاش الدائب في ساقيّ، فلم أستطع مجاراته. تمكنت من التملص من بين يديه، أفلت نفسي بحركة لولبية كسمكة صدفية تفلت من قبضة الصياد، لأجد نفسي أدخل دهليزًا ضيقًا يؤدي إلى صومعة المعبد.

حينها اطمأن قلبي، وجدت نفسي أركن إلى جانب قلة قليلة من البشر، لا يزيد عددهم عن أصابع اليد. هدأت جوارحي بعد أن عرفت أن هذا الجن مسالم، مؤمن، غير مؤذٍ. زال الوجل عن قلبي، على وقع مشاهدة هؤلاء الرحالة داخل المعبد.

كانت أرضية المعبد مفروشة بسجاجيد خضراء ناعمة كفراء القطن. ما إن أنهيت صلاتي بعد أن أخذت قسطًا من الراحة، حتى شعرت بظمأ، فبت أبحث عن شربة ماء. خرجت مع الخارجين، مارًّا في دهليز ضيق يؤدي إلى الباب الخارجي. وما إن خطوت خطوتين، حتى وجدت قطة أليفة، جميلة، ممتدة على محراب غرفة مجاورة في ذلك الدهليز، وكأنها غرفة الخازن.

كان الباب مفتوحًا، وفي الداخل سرير مفروش بفرش غاية في الأناقة والنظافة، مغطى بملاءة حرير من الاستبرق. جذبتني القطة بجمالية فرائها، فراء هادل، ناعم، أطرافه بيضاء، تخترق رأسها خطوط نحيفة سوداء كقلنسوة، وظهرها مغطى بلون البنفسج من أزاهير اللافندر، أشبه بسجادة قديفة لطراوتها.

كانت تنظر إليّ وهي قابعة في محراب الغرفة، لسحرها ورقة جمالها ونضارتها، أجبرتني على مداعبتها. انحنيت عليها، وما إن لامست ظهرها حتى تحولت إلى فتاة غاية في الرقة والجمال والأنوثة، فيها شبه من حبيبتي. ارتعبت منها، تجنبتها رغم سحرها الطاغي. حسناء ترتدي فستانًا من الحرير الفيروزي، تخترقه خطوط صفراء وبيضاء، تهجس بها كبدر التمام.

ارتعبت منها، تيقنت أنها جنية المعبد، بت أردد البسملة مرارًا: "بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ". حين التمست مخاوفي، كشرت بوجهي، نظرت إليّ نظرة ازدراء،

أظهرت في فحواها حنق وزعل شديدين، عبست، تمددت على السرير المركون في الغرفة، المغطى بلحاف أبيض من كتان بإزار أخضر من الستن اللامع. كأنها أصيبت بالعناء حين وجدتني افزع منها.. هَمّتْ بالنوم، كاشفة لي عن ساقين ممشوقتين، ممتلئتين رقة وحيوية، موشحتين بالعذوبة والنضارة والبياض الناصع.. الخوف الذي تقمصني جزل عني الرغبة، شده فكري، شتت انتباهي، فقررت أن أنجد حالي. يا إلاهي جنية تود الاقتران بي.... لا أذكر كم من المرات رددت البسملة، كنت أشبه بالغريق يتأمل طارئ خارجي ينتشلني من الهوان... وعلى وقع الصخب الذي كان يعتريني امتدت لي يد المعونة، حيث هجست بالسكينة مع انتهاء أحداث ذلك الفلم المرعب على يد زميلي النائم معي في غرفة الفندق مناديا:.....

- أصحى يا كريم ... أصحى لقد اقلقتني، ماذا دهاك؟؟.
حينها جلست وأذ بي أعود للواقع الحقيقي بجسدي وفكري وتفاصيل شخصيتي في ذلك الفلم الذي تقمصت به شخصية البطل دون وعي، فوجدت ذاتي ممتدة على سريري. حينها علمت كم أنا بعيد عن ذكر الله وكم أنا مقصر بعبادتي..

4- جمانة

منذ أن تعرفت على الفاتنة هدى، تلك التي أسميتها "اللؤلؤة"، وضعت نفسي تحت مجهر الأعين المتلصصة، وتحت ظرف لا يُحسد عليه. جعلتها تعيش في قلق دائم، منشغل البال، ولم أصغِ لنصيحة صديقي شاكر قط.

منذ أن سقطت لاحظة عيني على ملامح وجهها، فقدت السكينة التي كانت سمة دائمة لحياتي. تغير كل شيء، وانفلت شرودي، وصرت أحنّ إلى زمنٍ مضى، إلى أيامٍ كانت السكينة فيها منتشية في القلب. لكنني الآن ملتزم بخط الهوى، لا أستطيع العودة، فقد تجاوزت حد الرجوع، وما عليّ سوى إكمال المشوار.

تلك الفاتنة قلبت موازين حياتي رأسًا على عقب، زرعت الفوضى في مفاصل أيامي، وأوهنت قلبي بنار الحب. جعلتني إنسانًا مختلفًا، لا أشبه أحدًا، ولا حتى ذاتي. تبدلت مفاهيمي وقيمي، وتغيرت مواقعها في فكري وشخصيتي. بتُّ لا أعرف حقيقة نفسي، ولا ينفك عن خيالي طيفها الساحر.

وفي ليلةٍ من ليالي السكينة، سجى بي الشوق إلى أطلال الفؤاد المعنّى، قدحت قناديل الحنين، واستنارت أنوار الحلم، وتراقصت عنادل الود على ضوء القمر، تتبع طيف اللؤلؤة المستدام في خيالي، عبر نفق استهوى شرودي. تفتحت نوافذ

الـود أمـام حقيقـة اسـتهجاني، وبـدت الـروح مزهـوة بطـوق فـرح، وهي تستهوي ذكر الحبيبة هدى.

فــي تلــك الليلــة الســاهدة، جنحــت نحــو حقــل الهــوى، ركبــت مركـب الشـوق وشـتات الصـور، وانحـدرت نحـو منـازل الحلـم وخلجـات الوسـن. وطئـت موجـات الظـن والحقيقـة، واقتحمـت أسـوار الصـمت والسـكون الـدائر فـي خلـدي. تبعثـرت الأفكـار كحالــة عقــم بــين مــدٍّ وجــزر، ومعمعــة جــدل وجنــون. طافــت أعماقي كهسيس الشك، وهي تلهث باسم اللؤلؤة.

طيفهـا اسـتهام قلبـي، طـرق بـاب الـود كشـمسٍ دافئـة، ارتعشـت أوصــالي، وغســلت شــمائلي ببــروق ذلــك الســحر. ابتســمت لــي، فانحنيت لدفئها، وأرفقت هوسي بمصافي قدرها.

الحلـم طـاف أروقـة الـذهن، واسـتباح أبعـاد العـين وشـغاف القلـب بـذلك السـحر المشـع مـن فتائـل الحسـن. انتشـت نشـوة فـي فضـاء الـروح، وكـدت أغـرق فـي سـدم العصـف والخـوف، لـولا أن جـنح بـي القـدر إلـى واحـة مـن الهـدوء والسـكون، عبـر طـرقٍ مدلسة.

كنـت وحيـدًا فـي رحلتـي، أطـرق رواق الفكـرة، مـارًّا بمزرعـةٍ واسـعة، يكتنـف أجواءهـا هـدوءٌ تـام. كانـت الشـمس قـد غفـت فـي جحـور العتمـة، فانتشـى الغسـق فـي الأفـق. بقيـت سـاهدًا، أتبـع نشـوة هـدوءٍ ماجـت فـي حشـا القلـب، أحـفّ الـدروب المبهمـة دون يقـين، ماضـيًا فـي رواقٍ قـديم، تعرفـت علـى خفايـاه منـذ

القـدم، وكـأنني مـررت بـه يومًـا مـا، متـذكرًا تفاصـيله، كأنهـا مخطوطة قرأتها في زمن الطفولة.

رواقٌ بهيج رغـم حلكـة الظـلال، زادنـي شـوقًا وهيامًـا لاكتشـاف أسـراره. تتبعـت رغبـة ملحّـة فـي تلـك الممـرات الدهلـة، بشـيء مـن الجنـون. كـان هنـاك إصـرار داخلـي يـدفعني لتخطـي حالـة العجـز، يحثنـي علـى المضـي قـدمًا فـي ذلـك السـراط، لاكتشـف لغـز الـرواق المهجـور الـذي أغـواني. أردت العـودة للماضـي، راغبًا في تذكر المعالم التي عصت على الفكر.

وأنـا سـائر بنشـوة، هجسـت بـذاتي الهائمـة، وكأنهـا تتعقـب شـعلة ضـوء دون إرادة، هجسـت بنشـاط زهـري يتـدفق فـي الفكـر، يهـز البـدن، يرهـف كيـاني. كـأنني ألـتمس مصـداقية ظنـي فـي ذلـك الطريـق المتشـعب. فحـوى سـعادة ذائبـة فـي السـكون العـائم مـن حـولي، عبـقٌ لامـس القلـب، تـراءى لـي كحقيقـة تـبطن هـاجس الخيـال، كنخلـة باسـقة تـبهج الـريح فتغازلهـا، فتنثـر أطيب الثمر.

بـدت الآفـاق سلسـة، مرنـة، واسـعة، تتجـاوز أزمـة العلاقـة، تتبـع هاجسًـا مـن يقـين. أشـعرتني بتواجـد جمانـة فـي زاويـة مـن ذلـك الـرواق. كنـت سـعيدًا وأنـا أبحـث عـن الغايـة، رغـم الشـقاء والمثـابرة، رغـم المسـافة والعتمـة التـي تفتـرش الطـرق. مضـيت فـي سـري، أهجـس بظـلال الأشـجار ترافقنـي كشـياطين وطناطل، عبر الطريق نحو غايتي.

أذواني العطش وأنا تائه في تلك الدروب، دون استعداد للمفاجآت. لم أحتمل لاذعة الظمأ، ولهثت في واقع صمتي، أشدّ على الصبر بعد أن اكتوى عودي تمامًا. حينها أدركت بصيص إنارة يخفق بين ظلال الأحراش، كنبض نجمة بعيدة، كوَمضة فراشة صادرة من بيت زجاجي مركون إلى جانب طريق خفي.

اتجهت نحو ذلك البيت، وكلي أمل أن أسقى شربة ماء أُجيل بها ظمأي. ماضٍ دون وعي، في سرنمةٍ تتبع هاجسًا خفيًّا يقودني إلى المجهول، يحثني على التحري عن اللؤلؤة في متاهة الزمن. أتبع بصيص النور في العتمة، عسى أن أجد ذاتي الضائعة بين أفانين القدر.

كلما تقدمت خطوة نحو ذلك البيت، زدت ظمأً وحرقة، وانتشى العبق في المحيط، كأنّ العطر يندح من صدره. وما إن أدركت الدار، حتى وجدت نواسيه تضيء ممراته وما حوله. طرقت الباب، فانفتح على مصراعيه، بان خلفه ممر فضي ضيق، يلمع تحت شبكة من أضواء القناديل.

وفي قمة ورعي واندهاشي، لمحت فاتنتي تفك صرّة العقد، تنتشلني من هوة الحيرة. إنها اللؤلؤة، إنها جمانة!

ذهلتُ حين رأيتها تتقدّم نحوي بشوق ولهفة، فاتحة ذراعيها لتحتضنني، وجهها مسرور، ونفسها منشرحة. وما إن عانقتني، حتى ذوى العطش من على ثغري، واستكانت الروح في وهدة الشوق، وخلا القلب من اضطراباته.

استفسرت منها متعجبًا: –....

مـن أرى؟ هـدى؟! أأنـتِ تعيشـين هنـا، وأنـا أبحـث عنـك بـين الأروقة والدروب المحيّرة؟ كيف دخلتِ إلى هذه المتاهة؟

أجابتني بابتسامة هادئة: .....

أنا أقطن هنا، هذا بيتي. لا تتأبط العجب، تفضّل بالدخول.

دخلـتُ بقـدمي اليمنـى، متفوهًـا بالبسـملة، وإذا بالأضـواء تحاصـرني مـن كـل جانـب، مـن فـوق وتحـت، عـن يميني وشـمالي، ترشـدني فـي وهـدة الممـر نحـو غرفـة نومهـا، ذات الأضـواء الورديـة الخافتـة، والمطلـة علـى حديقـة واسـعة مـن الـورود السـاحرة: جـوري، فـل، ياسـمين، كـادي، نـرجس، قرنفـل، كاماليـا، شـقائق النعمـان، جلنـار، أوركيـدا، وتوليـب، كباقـات تحـيط بمسـبح دائـري لطيـف، زلال مائـه يتـدفق بنقـاء، حتـى أننـي رأيـت الأحجـار الملونـة والأسـماك وهـي تسـبح فـي موجه.

دخلـتُ غرفتهـا التـي بـدت لـي دائريـة الشـكل، ترتكـز قاعـدتها علـى أعمـدة مغروسـة فـي عمـق البحيـرة، فيمـا يشـكّل سـقفها فسيفسـاء تشـتعل بهجـة تحـت بهرجـة ثريـا مـن الكريسـتال الملـون. يتوسـط الغرفـة سـرير دائـري مـن عظـم العـاج، مفـروش بقطـن خـالص، ومغطـى بشراشـف زهريـة مـن حريـر

السوسن والاستبرق، معلّقة بأعمدة السقف عبر بوصلات رفيعة من الأستيل المذهب.

كان سقف الغرفة أشبه بقبة رصد فلكية، أو مزارٍ مقدّس، مرصّع بأختام نجوم لامعة وتوابع من أحجار كريمة منوّعة، مصفوفة بشكل فسيفسائي جذّاب، يزخر وسطه بزخرفة إسلامية براقة من عقيق وفيروز وتوباز وماس، وأحجار أخرى لا أعرف لها أسماء. شعرتُ بنفسي وأنا أتجوّل وسط تلك الدهشة كعنصر غريب، شاذ، لا يليق بتلك البقعة المبتهجة.

بدت هدى تتحرك بين الأضواء كحورية، ترتدي ثوبًا من حرير شفاف، يتدرج بين أصهب فاقع وزرقة فيروزية تشهق بالبهاء، توائم بؤبؤ العين، موسومة بالحدة، تزيد الأجواء بهجة وأناقة. كأن الأضواء تستمد طاقتها من رقتها ونعومة بشرتها الملداء.

بان جسدها تحت وهج الثوب يتماهى كالضوء، يتخلل ديباجها المخملي البراق، ينعكس على ثنايا الغرفة، وكأن البيت يمتص إشعاعه وألقه من ذلك الجسد. وجدتُ نفسي مرهونًا بقيد سحرها، منقادًا خلف ذلك الحسن المشع والجسد الأهيف.

انحدرتُ نحو منبع الفتن لأستشعر سحرها، هجستُ في ملامستها شوقًا أغواني، احتضنتها برقة الملهوف، تحسست دفئها وفيض عطرها، تبعتُ غياث الشبق المنفوش من شهقة

الأنفاس. لم أشعر بذاتي حين طوّقتها بذراعي، وحين غرست شفتي في جمار شفتيها، حتى امتزجت الآهات برضاب شدقيها، ونفذت الروح إلى جميل روحها. عندها هجست بها وقد صارت كخيط دخان يلتف على بدني بصحبة اللهاث المتراقص من لدنها.

غارقًا في حضنها، تأملت مفاتن الجسد وشطآن الغواية، تنقلت كالفراشة من زهرة لأخرى، أبحث عن الشهد بين ثناياها، أتحلى بالقبلات، أُهيّج حراشف الفتن، أتبع سطع النور وفيض النبض، أتنقل على وقع الشد والجذب بين مباهج الوجه والجسد، متأملًا شموخ الأنف وسعة العينين. هكذا مضيت، أنساب كنمير فوق رواق الشفتين والصدر، أجنح هنا وهناك كذبابة تستمتع بالحلوى، خلتُ سرتها جوهرة تسبح في موجات البطن، امتدت يدي إلى دبق العجيز وثأدة الأفخاذ، تراخت بين يدي وهي تتبع غايتي، هجست بها تجذبني لفردوس جنتها.

غسلتُ ذاتي من الأرق بوهج ذلك الحسن المزدان، امتزجت المشاعر، تداخلت الأهواء، تلاحمت الأنفاس في بوتقة شبق، ونحن نتقلب على وثير الفرشة بنزق الحب.

وبعد تلك العجة التي عصفت بنا، ارتقى الوله قمة الجنون، جنحت النفس لفض عقدة الشبق، شعرت بجسدها قد تراخى بين أضلعي، تماها كالثلج وهو يسيح بين يديّ، يجلي نار الصبابة من حشا القلب. أصابها سهم الشوق كما أصابني، خرت كفتنة جذلى أمام عصفي، أسطلت بنار شوقي وهيامي.

فـي نهايـة المطـاف، كـان لا بـد مـن ارتـداء تـاج العـرف، بعـد أن أوقدت الأنوار في جُعَبِنا.

وأنـا منشـغل بالشـغف والهيـام، انصـبت عينـاي علـى شـاخص عمـود الكهربـاء المركـون وسـط حديقـة الـورود، إذ تـوهج وهجًـا غيـر طبيعـي. وقبـل أن تـتحكم هواجسـنا برغباتنـا، شـظيت منـه شـرارة قويـة أغشـت الموقـع وأعيننـا، تحـرك العمـود عـن موضـعه، اتجـه نحونـا، سـطى ضـوؤه علـى إنـارة البيـت، كـأن طاقـة إضـافية شـحنت مصـابيحه فتوهجـت كـوهج الشـمس، صـحب ذلـك البريـق هـدير مرعـب، اهتـزت لـه الجـدران، وبوهجـه تعطلـت مصـابيح البيـت عـن بكـرة أبيهـا، إلا مـن نـور خافت بقي ينسل من جسد جمانة.

اختفـت البهرجـة مـن حولنـا تمامًـا، اختنقنـا بظـلال الخـوف، شـعرت بـالفزع يتخللنـي وأنـا ناحـل الجسـد فـي قمـة الهيـام، زاغ خـوفي علـى حبيبتـي مـن أن يصـيبها مكـروه، كـأنّ يهـوى بنـا سقف البيت أو يحترق عن بكرة أبيه.

تمعنـت فيمـا حـولي، لـم أجـد مـا يثيـر الانتبـاه، جـال صـمت فـي رواق البيـت، غطـى علـى هـوس أشـواقنا، هـدأ الوضـع لبرهـة، قبـل أن تسـتتب قرقعـة وسـط ذلـك الصـمت، حتـى اسـتولت جلجلـة صـاخبة علـى تفكيرنـا، تلاشـى الصـمت أمـام حجـم الفـزع، جلجلـة أقـدام غليظـة تطـرق مسـامعنا، تـدك محـيط الغرفة.

استدرت نحو العمود، وإذا به قد تغير شكله، بان أشبه بوحش ضخم، طويل القامة، وفي وجهه ابتسامة استهزاء صفراء. حينها تجمدت عروقي، ارتعشت الروح، كأنها تود أن تنفذ من الجسد. حاولت أن أتدارك أمري، أن أهرب من المكان باختطاف اللؤلؤة، أن أنبهها لما يجول في خاطري، هجست بها وقد ذوت بين ذراعي كخيط دخان، انسلت وسط دياجي الوحشة المحيطة بنا.

كل شيء تغير من حولي بسرعة البرق، تحولت تلك اللؤلؤة إلى وسادة ناعمة بين ذراعي، وأنا أشد عليها بقوة شرودي وفزعي، خوفًا عليها من المجهول. أصابتني رعشة الخوف، وأنا أنظر إلى ذلك الشبح الذي بات يخترق الحاجز الزجاجي لينال منا. تخطى الحاجز كضوء مستطير، شظيت صورته في أرجاء الغرفة، عبر الانعكاسات والانكسارات التي أحدثتها مرايا الجدران، حتى بت أراه ينفذ إليّ من كل زاوية.

تراءى لي شكله قبيح، مخيف، منخر مسطح، أنياب طويلة بارزة كأنياب النمر، عينان مبيضتان، شعر داكن متطاير كاللهب، أصابع أطول من الساعد، جسد مكسو بشعر كثيف، له مخالب كمخالب النسر. شبهته بالشيطان أو زومبي الأفلام الأمريكية المرعبة، أو كما وصفته لي جدتي حين كانت تقص علينا قصص الخيال في أيام الطفولة بالطنطل والسعلاة.

بـدت أرتجـف وأرتعـش وأنـا مغشـي أحتضـن الوسـادة، فيمـا هجست نفسي تقف على وهدة دهمة، عميقة، بانت لي كحفرة قبر مفتوح دون أن أعلم...

مع تغير الموقف صرت أصرخ بكل ما لي من طاقة ليصل صوتي لأبعد مدى، عسى أن أجد من يسعفني وينقذني من مأزقي، زادت الرعشة في جسدي مع دقائق الزمن، هجست بفخذي تبللتا بماء دافئ، وكأني قد أرقت البول دون إرادة، تصبب العرق من جسدي بغزارة.

حاولت أن أجر ذاتي وأبتعد دون أن أستطع تحريك جسدي الأجدب عن موضعه، حاولت الزحف بكل ما لي من طاقة دون أن أفلح بذلك، تكبلت اطرافي بالخوف، كأني أصبت بشلل عام وخمول وجمود وفزع..

رغم قوة صياحي أكاد لا أسمع صوتي، ولا أهجس لصداه أثر، يكاد الصوت لا يتجاوز أسوار كياني، كتم أنفاسي دون أن يحاول ذلك المخلوق من أن يؤذيني أو يفترسني وهو واقف كجبل فوق رأسي.

شعرت بنهايتي قد أذنت، الهوة سحيقة، جاهزة لابتلاعي..

أستمرت حالتي على تلك الوتيرة، فاقدا إحساسي بذاتي، فلم أشعر إلا على وقع طرق شديد على باب غرفتي... تلك الطرقات أيقظتني، أعادتني من عالم التيه لواقعي، أعادتني إلى عالمي الملموس من جديد، أعادتْ السكينة إلى قلبي الذي

اشـرف علـى التوقـف لسـرعة نبضـه.. هممـت متثـاقلا لأفـتح البـاب، وإذ بـه آمـر الفصـيل ينبهنـي إلـى ضـرورة التجمـع لأمـر هام.

- أصحى يا أمجد جاء أمر انتقالنا للخطوط الأمامية؟
- حاضر يا سيدي خمس دقائق أجهز...

قلـت لـه ذلـك دون أن أزيـد، حيـث عينـاي لا زالتـا مغمضـتين، ثم أغلقت رتاج فكري لتهدأ وترتاح جوارحي..

لـم أكـن علـى مـا يـرام، بقيـت مجهـدا أعـيش الحالـة برمتهـا، القلـب يخفـق والقلـق يلاحـق وجسـي ككلـب مسـعور، تلمسـت فخـذي وملابسـي فلـم اجـد تغييـرا فيهمـا، حمـدت الله واسـتغفرته، ثـم قـرأت آيـة الكرسـي والمعـوذات، برحـت أغسـل وجهـي لأعيـد التوازن لجسدي المهلهل.

أنذال

في حضرة الخذلان: حين تفضح المواقف ما توارى خلف الأقنعة

طوال مسيرة حياتي، مررتُ بمواقف وصدمات كشفت لي عن حجم النذالة المدفونة في نفوس من كنت أعدّهم رفاقًا، بل أقرب الناس إلى نفسي. لم تكن تلك الصدمات مجرد لحظات عابرة، بل كانت كاشفة، فاضحة، عرّت وجوهًا كنت أتوهم فيها النقاء، فإذا بها تنضح بالخبث. والأدهى من ذلك، أنهم قابلوا طيبتي بتعابير تنمّ عن قلة الذوق، وسلوكٍ لا يمتّ للأخلاق بصلة. وكما يقول المثل: "يجيك البرد من الرجلين"، فإن الطعنات جاءت من حيث كنت أظن الأمان.

لم أكن أتوقع أن أشمّ زنخ النذالة من أناس حسبتهم أقرب إليّ من حبل الوريد، جمعتني بهم علاقات مجتمعية، وصحبة طويلة، وذكريات لا تُعدّ ولا تُحصى. كنت أظنهم عمود النور الذي أستضيء به في عتمات الطريق، وأتوشح بهم أمام الآخرين بهاءً وفخرًا. لكنهم، ويا للأسف، لم يكونوا سوى أشباه رجال، سلوكهم الجلف شينٌ التصق بهم، وثوبهم الأبيض اتّسخ بما لا يُغسل، وعبثوا بصورتهم حتى التصق وسخهم بذاكرتي إلى الأبد.

لقد عرّت المواقف نواياهم، وكشفت سواد نياتهم، وكانت تصرفاتهم بمثابة الشعرة التي قصمت ظهر البعير. أخلّوا

بقيمهم، ونسفوا صبغة الاحترام والتقدير، وهزّوا أركان تقييمهم في أعماقي الثقافية والدينية والأخلاقية. جردوا مفاهيم الأخلاق من معناها، وصاروا نموذجًا قذرًا حشرهم الظرف في حياتي كعارضٍ ضارٍ، جمعتني بهم الصدفة على مقاعد الدراسة أو الجيرة أو العمل، فكانوا خردوات كراكيب المعرفة، لا أكثر.

الزمن، كعادته، لا يُخفي الحقائق، بل يكشفها، وقد كشف لي معدنهم الدنيء، وزيف أخلاقهم المنتنة. لقد عرّوا أنفسهم بأنفسهم، أو لعلّ الله أعراني حقيقتهم لأحذر منهم. طفحت أعمالهم كنقاط سوداء في صفحات معاملتي البيضاء، لاكوا الطفولة والعشرة والزمن بسواد المواقف، وخرطوا صفحات الماضي بمشارط أنانيتهم.

آهٍ... كم كانت عيني مغشاة بضبابية السحب، كأنني كنت مصابًا برمد العيون والعجب، ألهتني عن فطنتي طويلاً. لم أمعن النظر في تلك الشوائب إلا بعد الاحتكاك والتجربة. وبقدر ما آلمني سلوكهم المشين، فرحت باكتشافي أصل معدنهم الرخيص، لأتجنب غلّهم وتعاملهم في المستقبل. تركوا لكاكهم على ثوب العشرة شاهداً عليهم، لا يُمحى.

(جمال عباس - حسين درويش): خيانة الرفقة في الغربة

بعد شهرين من تواجدي في صنعاء كمدرّس، وصلت بعثة تدريسية من العراق، ضمّت ثلاثة من زملائي المقربين. استقبلتهم بحفاوة، وضيفتهم قبل أن يتم توزيعهم على

المحافظات. نُسب أحدهم إلى محافظة إب، فيما بقي (جمال عباس، وحسين درويش) في صنعاء. كنت دليلهم في المدينة، وعزمتهم على مأدبة غداء، وكنت أعمل بعد المدرسة في ورشة إصلاح الأجهزة الكهربائية، مكتفيًا ماديًا، راضيًا بما قسم الله.

ومع مرور الأيام، اندمجوا في شلّة جديدة من زملائهم، وصارت لقاءاتنا تحكمها الصدف، فاترة، نادرة، كأننا لم نكن من بلدة واحدة، ولا زملاء مرحلة. شعرت أنهم أصيبوا بزهو التعيين، وتغيّرت ملامح العلاقة، وتبدّدت الألفة.

ثم، فجأة، صاروا يبحثون عني، يلحّون أن أشاركهم السكن، بحجة جمع الألفة، وتخفيف وطأة الغربة. وصفوا لي السكن بالمريح، وأقنعوني، فنزلت لرغبتهم، ووافقتهم. دخلت الدار مساء الخميس، وفي صباح الجمعة كنا قد فطرنا معًا، ثم خرجت للتبضع بعض الحاجات الضرورية كبراد الشاي وصابون الغسيل ...الخ. عدت قبل الظهر، فوجدت الشقة خاوية، كأنها مهجورة، لا صوت، لا حركة، لا حياة.

دخلت غرفتي، فوجدت أغراضي كما تركتها، لكن قصاصة ورقية كانت على مخدتي، كتبها (جمال عباس) بخطٍ مستعجّل، تقول: "نحن كمجموعة نعتذر منك، انتقلنا إلى سكنٍ جديد، ونأسف لأن السكن الجديد يستوعب خمسة أفراد فقط وأنت سادسنا."

يـا للوقاحـة! يـا للبجاحـة! قبـل سـاعتين فقـط كنـا نفطـر معًـا، ولـم أفـرض نفسـي علـيهم، بـل هـم مـن توسّـلوا بـي. أيـة صـيغة هـذه التـي تعـاملوا بهـا معـي؟ أيـة خسـة ونذالـة وقـذارة؟ لقـد احتقـروا أنفســهم دون أن يــدركوا حجــم الإذلال الــذي نصــبوه لــذواتهم. كشـفوا عـن أنفسـهم بسـلوكهم المشـين، الـوقح، قليلـي الـذوق، عديمي الوفاء.

لـم أشـاركهم السـكن سـوى سـويعات، لكنهـا كانـت كافيـة لأكتشـف حجـم النذالـة التـي يتحلـون بهـا. مـا أغاضـني أكثـر هـو أن نيـتهم للانتقـال كانـت سـابقة لـدعوتي السـكن معهـم، وكـان مـن الأولـى إبلاغـي، لا تركـي فـي شـقة خاويـة، بورقـة اعتـذار لا تسـمن ولا تغني من جوع.

نحـن أبنـاء بلـدة واحـدة، وزمالـة وظيفـة، أمـا مـن عرفـوهم فهـم أصـدقاء صـدفة، غربـاء، زمـلاء ظـرف عـابر. مـن فـي دمـه فيـروس خبـث، لا يُرجـى منـه خيـر، وابتسـامته دومًـا صـفراء. أما أنا، فلن أتحسف على نعلٍ تقطع في قدمي.

وبعـد أسـبوع، التقيـتهم صـدفة، فاعتـذروا، وألقـوا اللـوم علـى قائـدهم المصـلاوي. لكـن هيهـات، فالاعتـذار لا يصـلح مـا كسـره الدهر، ولا يُرمم ما تهدّم في القلب.

ثانيا: راضي عساف و (م ص)

بعد أن انتهت السنة الدراسية الأولى في اليمن، استلمت مبلغ قدره 2500 دولار كراتب عن سنة دراسية ناقص ثلاثة أشهر عن بدأ العمل. خلال هذه السنة كنت قد تعرفت على الأستاذ راضي مدرس الجغرافية في مدرستنا، وهو من أصل فلسطيني كان قادما من الامارات برفقة صديق له العراقي الجنسية أسمه شاكر.

كانت شخصية راضي محبوبة جدا من قبل الجميع، لثقافته وفرفشته وابتسامته، يكاد له دراية بكل مجالات الحياة وتفاصيلها، كان ذات صفات جذابة، شعره الأشيب يزيده وقارا واحتراما. هادئ، رزين، لبق، له قدرة هائلة على الأقناع والتعبير بشكل مذهل، لذا تجده مقبولا لدى الجميع.

كان أشبه بالحرباء يستطيع تغيير لون جلده حسب الظرف، يتعايش مع الجميع، علمته الغربة والقسوة الحياة التي بها تجاوز حالات الصعاب بيسر. كونه فلسطينيا، فأنه مشردا بالفطرة. عمره السادس والخمسين وطوله المتوسط، يضفيان عليه صفة البرجوازية. لقد اعتبرته أخ وصديق وقدوة لي وأنا في مقتبل الثلاثين من العمر.

ابعد عن الإمارات بعد حرب الكويت مثلما أخبرنا، كون القيادة الفلسطينية وقفت إلى جانب العراق خلال حرب الكويت. علما أني حين دخلت الإمارات؛ تفاجأت بوجود عدد هائل من العراقيين والفلسطينيين يعيشون فيها دون عقد. هذا

يعني قصة أبعاده كونه فلسطينيا قصة مفبركة لا تنم للحقيقة بصلة، وأكيد أبعد لخبث عمله لما يحمل من خسة ونذلة في مجال النصب والاحتيال وما شابه ذلك. على أية حال كان قد فتح ورشة تجارة برفقة صديقه العراقي شاكر في شارع هايل.

الصديقان المتحابان صارا يعملان في مكتب استيراد وتصدير وهو في الحقيقة (مكتب نصب واحتيال). كان ذلك في سنة 1992 – 1993.

كنت قد دخلت المكتب مرتين فقط للتهنئة مرة، ولمعرفة طبيعة العمل في نهاية السنة الدراسية مرة... حينها لم أجد فيه شيء يلفت النظر سوى بعض الكراسي وشاشة كومبيوتر. في وقته كان الكومبيوتر حديث العهد يعمل على نظام الدوز وبسرعة 10 – 20 ميكا بيت بالساعة وطاقة تخزين 10 كيكا، أي بطيء جدا، ولكن كان له وقع خاص في نفس من يشاهده، لندرته وقلة من يعرف استخدامه..

كان الكومبيوتر يعطي قيمة فنية وتقنية للمكتب أكثر من أنه جهاز تعامل وتخزين معلومات، كان يبين حجم التطور الحاصل في المكتب وقدرة تعامل اصحابه مع الشركات. هكذا خيل إلينا، كما أني لم أشاهد أية بضاعة في المكتب تدل على استيرادهم وتعاملهم مع الزبائن. ولم أجد زبائن فيه خلال الزيارتين التي صادفت أن اتواجد بها في المكتب، ولم التمس أي عمليات تخص طلبيات الزبائن. لذا لم أفهم نوعية العمل ونتاجه.

فيما سبق كنت قد شاهدت جهاز كومبيوتر في بغداد عام 1980 في منطقة الميدان، وكان حجمه يشغل مساحة صالة كاملة 8*12 منصوب فيها عشرة دواليب موزعة على جدران الصالة، قالوا لنا هذا هو الكومبيوتر، سبحان الله من عشرة دواليب قلص حجمه ليكون بمثابة كتاب في اليد...

المهم أستغل راضي وجودي في مكتبه وحبي وتقديري له وبساطتي وطيبتي واحترامي الزائد ليعرض عليَّ مشاركته في المكتب!!! كان ذلك قبل موعد سفرنا لدولنا لقضاء العطلة الصيفية..

أتجه إليَّ قائلا:.....

- ما رأيك يا أستاذ ياسر أن تدخل شريكا معنا في المكتب؟ لمحبتي وتقديري لك أقترح عليك ذلك، ستستفاد بقدر ما تدفع.

من جانبي فهمت أنه فضلني على أقراني، لصدقي ونظافتي وطيبتي، ومن جانب آخر وجدت عرضه فرصة لأفهم ما يدور في سوق التجارة وما تطلبه الحياة وكيف اتعامل بالكومبيوتر.. في الحقيقة أنه أستغل بساطتي وسطحيتي في هذه الأمور ليلتف على رقبتي بخبث كثعبان، لدناءة غايته وللنقص المغروس فيه.

كان اقتراحه أشبه بقنبلة موقوتة رماها في حجري، حري عليَّ أن أرد عليه بالسلب أو بالإيجاب وإلا فأنها ستنفجر

وتقتل الفرصة المتاحة أمامي، لأنها فرصة يجب أستغلها، وإلا ستزهق الفكرة ويضيع الحلم الذي كان يراودني في تغيير ظرفي لمللي عملية التدريس.

في اقتراحه وجدت متنفسا جديدا يعتقني من قيد الوظيفة الحكومية، لأجد متنفسا للانخراط في سوق العمل والتجارة ومعرفة ألغازها. وددت أن أبدل جلدي، أن أكون أنسانا جديدا بمواصفات عقلي. حيث كنت قد جربت العمل الحر واستلذذت طعمه في ورشتي قبل مجيئي لليمن، عرفت قيمة العمل الحر، كنت أجني من الورشة مبالغ أضعاف ما أتقاضاه من مرتب الوظيفة. فقلت له:...

- كيف أشاركك؟ وأنا لا أعرف شيء عن عملك وبماذا تعمل؟ وليست لي خبرة تعينني على ذلك.

- يا أخي أدخل شريك معنا وستتعلم الصنعة خلال أيام، فلولا محبتي لك لما اقترحت عليك ذلك.

بصراحة؛ كان قد أغراني في عرضه وأقنعني بلسانه، فقلت لذاتي لِمَ لا أجرب حظي معه، وأتعلم صنعة لها قيمة تسند مستقبلي، صنعة أرقى من عمل الورشة التي تجلب لي المشاكل ووجع الرأس مع الزبائن. حيث دائما ما يتطلع الأنسان للأفضل. وبصراحة العمل مع خبرة الأستاذ راضي غنيمة، كنت أنظر له بثقل مفرطة، حتما سأستفاد من خبراته.

وافقت على اقتراحه، وددت أن أنطلق لعالم أوسع خيالا وأكثر بهجة، بعد أن تلطخت ثيابنا بألوان البؤس والشقاء جراء الضغوطات النفسية التي تعرضنا لها في العراق والحصار الذي أضعف قدراتنا.. لذا قدمت له مبلغا قدره 1500 دولار بكل بساطة، كان حينها يعادل مبلغا قيما. حتى أني لم أناقشه عن صيغة العمل لثقتي العمياء به.. كيف أبدأ، ومتى أعمل؟ والحقيقة كان همي أن أتعلم منه مهنة خارج إطار الوظيفة.

بعد ثلاثة أيام التقيته صدفة في شارع جمال، كنت خلالها أتجول مع الزميل عزيز..سلم علينا وقال لي:....

- أنا آسف يا أستاذ، أود أن تعتبر المبلغ الذي قبضته منك سلفا لي، لأني كنت أخجل من أن أخبرك بالضائقة المالية التي أمر بها. وأني على استعداد أن أعيد لك المبلغ متى شئت.

بصراحة لم أستوعب الحدث، أهذا ما أفرزته قريحته من أسلوب ملتوي؟ كيف تحولت الشراكة في العمل إلى سلف؟... أهذا هو الأستاذ راضي؟ أين الكياسة والمبادئ التي تحلا بها؟ أين الثقافة والأخلاق؟... هل عجز أن يقول لي الحقيقة؟ هل من المعقول أن يتصف بالنصب والاحتيال؟.. من يضمن أن يعيد حقي إذا؟ لقد صار يساورني القلق!....

لكنه الأستاذ راضي! صاحب المثل العليا واللسان الطيب. يا أله! أنه فعلا أظللني بالمكر والخداع... رغم ذلك تصرفت

معه بكياسة دون أن أحرجه، شعرت في عينيه يكمن توسل وخجل فاضح، و لشيبته ووقاره وانكساره قلت له:.....

- لا عليك يا أستاذ راضي، دع الف دولار عندك، وأعد لي 500 دولار، من المحتمل أكون أحتاجها في العراق، فالأنسان لا يقرأ ظرفه. ولكن بشرط أن تعيد إليَّ المبلغ، متى ما أكون بحاجة له.

- وهو كذلك، سأكون جاهزا لرده متى شئت.

أخرج 500 دولار من جيبه وأعادها لي، شاكرا تقديري له.

خلال عودتي للوطن؛ شاءت الأقدار أن أتمم نصف ديني دون تخطيط مسبق، وكنت قد أتصلت بالصديق أبو فادي الذي أدرس أبنه. طالبت منه أن يستأجر لي سكنا، كوني سأجلب معي زوجتي. كان رجلا دمث ألخلق، كريم النفس، طيب الطباع. لن أنسى فضله وتعاونه واستقباله لي ما حييت....

خلال مراسم الزواج كنت قد صرفت كامل المبلغ الذي بحوزتي، وكان يعد مبلغا كبيرا جدا أيام الحصار الجائر، الذي كان مرتب الموظف يعادل ثلاث دولارات فقط.

بعد الزواج كنت بحاجة لمصرف الطريق فقط، من فندق ومطعم في عمان عاصمة الأردن؛ حتى أصل صنعاء –

حيث بسبب الحضر المفروض على طيران كان لابد من السفر لليمن والعالم عبر الأردن.

هنا فكرت بأقرب صديق لي، وهو الأستاذ (م ص) أبن محلتنا وصديق الطفولة ورفيق الدراسة، وكونه مدرسا معي في اليمن، وكوني كنت قد أسديت له ولعائلته خدمت جليلة خلال حرب إيران تفوق الوصف ولا تقدر بثمن، وكوني عاملته معاملة حسنة خلال استقبالي له في اليمن...الخ. فاتجهت إليه طالبا منه المساعدة لغاية أن أصل اليمن منعا للأحراج أمام زوجتي.

فيما سبق قد طلب مني أن اتوسط لأخيه(ص) عند أخي الأكبر الذي كان يشغل منصبا مرموقا في قاطع الفيق الثاني، لينقله من خطوط الجبهة الامامية خلال حرب إيران لمدينة بعقوبة، قلت له دعني اتصل به من داركم كون عندكم في الدار تلفون، فسايرته لدارهم، اتصلت بأخي من هاتفهم وطلبت منه ان يساعد(ص) قدر الامكان، قال لي اعطني عنوانه، فدون عنوانه الذي املاه عليه الاستاذ (م ص) وتم نقله في الاسبوع التالي كانضباط تحت أمرته في بعقوبة.

الحقيقة أنا واستاذ (م ص) نكاد لا نفترق إلا ما ندر، سواء خلال تجوالنا في الشوارع المدينة أو في الرحلات المكوكية أو خلال جلساتنا في المقاهي...الخ.. لذلك اعتمدت بحاجتي عليه مقابل المعروف والإحسان الذي كنت قدمته له سابقا، متحزما بالمقولة التي تقول - الحر هو من راع صاحبه وأحسن إليه. حيث من العار أن يتخلى الصديق عن صديقه

وقت الضيق...لذا قررت أن أستلف منه مئة دولار فقط، ليعينني على جلد الطريق منعا للأحراج أمام زوجتي.

ذهبت إليه قبل السفر بيومين وأنا كلي ثقة سيقدر موقفي ويعينني على حرجي. فقلت له:..

- عزيزي (م)؛ أنت أقرب الناس إليَّ، فلا أخفيك سرا، أنا بحاجة لمساعدتك، لقد صرفت ما في الجيب على الزواج ولم يبقى بمعيتي شيء على ما يعينني على تجاوز الطريق. أرجو أن لا تحرجني وأن تسلفني مبلغ 100 دولار فقط منعا للأحراج أمام زوجتي، وللعلم أني قد تركت ألف دولار في صنعاء، بمجرد أن نصل سأعيد لك المبلغ.

رد علي بجفاء وبأسلوب صلف لم أستوعب فعله، حيث قال لي قاطعا حبل الوصل:...

- آسف لا أسلفك! !

اندهشت! لأنه أقرب الأصدقاء، وأني صاحب فضل عليه. بقيت مبتسما بوجهه، غير مصدق ما أسمع، وفي مخيلتي حسبته يمزح معي. فقلت له متعجبا....

- هل أنت جاد في ردك ؟ أم تمزح؟

- نعم أنا جاد لن أسلفك!.

الححت عليه وكل توقعي بأنه يمزح معي، فقلت له..

- أنـأ أخـوك، لا تحرجنـي أمـام زوجتـي، نحتـاج أن نـدخل مطعـم أو فنـدق أو نشـتري حاجـة مـا، الوقـت يـداهمنا فـلا مجـال أمامي.

فـرد علــي ردا قاطعــا مخزيــا، أغلـق مجــال المحادثــة تمامــا، حيث قال:...

- والله لو تطلب مني درهما واحدا لن أسلفك إياه.!!!!.

- الله واكبـر!! مـا هـذه البجاجـة ؟ هـل مـن المعقـول أن يصـل بـك البخـل لهـذا الحـد مـن الخسـة والنذالـة؟ هـل أنـت واع لتصـرفك.. معقـول حبـك للمـال أنسـاك معروفـي الـذي قدمتـه لـك والــذي لا يقــدر بــثمن.. فعــلا أنــت كمــا يقــال عنــك خســيس ونذل...

صدق المتنبي حين قال:--

"اذا أنت أكرمت الكريم ملكته –

واذا أنت أكرمت اللئيم تمردا"

أيمكن أن تقابل أحساني ومعروفي لك بهذه القباحة ؟

رد علي بقباحة أخس من الأولى وأندى، حيث قال:..

- ذاك كان بفضل أخوك وليس بفضلك أنت!..

هههههههههـه، هكـذا رد علــي بقـبح دون حيــاء- (راد يكحلهــا عماها)...

لم أستوعب ردة فعله بتاتا، لم أجد أنذل وأقبح من تصرفه في حياتي وفي كتب التاريخ..... كان الأجدى أن يقدر موقف أخي وإحسانه بدل أن يتنكر أحساني له**!!!** فقلت له بحدة وعصبية، لم يبقى للذوق فرصة تعامل.

- قبح الله وجهك يا ناكر الجميل، الم تتوسل بي لأتصل بأخي من داركم بوجودك أنت؟ هل نسيت اتصالي به امامك؟ آسف عن العمر الذي قضيته معك، أنت مجرد صعلوك..

حينها تركته مندهش من ردة فعلي، لكن بقي جرحه ينزف في ذاكرتي.

استلفت من الطيب عزيز 100 دولار دون جهد، وحين عدت لليمن بصحبة زوجتي سكنت في فندق إسطنبول وسط ميدان التحرير، ثم أتصلت بأبو فادي عله وجد لنا مسكنا..

- نعم وجدت لك سكن أنت أين الآن؟.

- في فندق إسطنبول في ميدان التحرير.

لم يتأخر سوى دقائق، نقلنا بعجلة تكسي إلى داره في منطقة الحصبة. كان هذا الطيب يعتذر مني خلال الطريق، لأنه لم يجد سكنا، لكنه وعد بسكن في ذات العمارة التي يسكن بها خلال أسبوع.

حينها تحملنا لمدة اسبوع بعد أن أفرغ لنا غرفة الأطفال في داره بشكل مؤقت، قضينا بها ذلك الاسبوع... لن ولن أنسى فضله ما حييت، حيث للإحسان وقع على القلب يصبح مع مرور الزمن آية حب تقرأ في المناسبات، لتجديد تقدير واحترام ذلك الطيب.

في اليوم التالي ذهبت للأستاذ راضي، وشرحت له تفاصيل تغير ظرفي، وطالبته بالمبلغ الذي أودعته عنده، فأستخرج من جيبه 100 دولار كدفعة أولية، بعد ذلك صار يقَطّرَ المبلغ بالقطارة، كل شهر 50 دولار، حينها لامه مدير المدرسة وآخرون وأبو فادي، لعدم مراعاته ظرفي الحرج، حيث المرتبات كانت تدفع لنا كدفعة واحدة في نهاية السنة الدراسية، لكني كنت اعتمد على الورشة في تصريف شؤوني.

ربما كان معذورا في حينه، لكنه طبق نظرية مكيافلي معي.. (الغاية تبرر الوسيلة)، المهم يقضي حوائجه وأن كنت أحترق امامه...

\\\\\\\\\\\\\\

عدنان جهدية

الزئبق الذي احترق في ذاكرة الجيرة

كان عدنان أقدم نجار في جلولاء، وأكثرهم مهارة وخبرة، يكبرني بخمسة عشرة سنة على الأقل، ابن أقدم جار لنا وصديق أخي الأكبر. دارهم كانت تقابل دارنا، جمعتنا الجيرة لأكثر من عشرين عامًا. في طفولتي، كنت أرافق والدتي إلى دارهم لمشاهدة التلفاز، إذ كانوا الوحيدين في المحلة ممن امتلكوا جهازًا في الستينات، وكان ذلك حدثًا استثنائيًا في زمنٍ شحيح.

بعد أن التحقت بالجامعة، انتقلوا إلى دار أخرى، وانتقل عدنان إلى بغداد، ومنذ ذلك اليوم انقطعت رؤيتي له، قرابة خمسة عشر عامًا من الغياب.

وفي أحد أيام عام 1994، بينما أتجول في شوارع صنعاء، التقيته صدفة في شارع جمال، كان يعمل ديكورًا لأحد المحلات. تبادلنا السلام والأحضان، وكان برفقته شابان كرديان من السليمانية، محمد وسيروان، مهندسا ديكور يعملان معه كمجموعة. أشار لي إلى مكان عمله الدائم، ووصف لي محل سكناه في شارع هايل، أطول شوارع صنعاء، الذي يلتف حول المدينة كهلالٍ يبدأ من الحصبة شمالًا وينتهي بشارع حدا جنوبًا.

شاءت الصدفة أن ألتقيه مرة أخرى، هذه المرة برفقة امرأة ادعى أنها زوجته. كانت قبيحة الشكل، غارقة في مكياج صارخ، أشبه بغواني الغجر. بدا لي مستقرًا في عمله، يكسب جيدًا، ويعيش حياةً لا تخلو من مظاهر الرفاه.

كنا، نحن المغتربين، نرتاد المقاهي بعد انتهاء الدوام الرسمي، أو نتجول في ميدان التحرير، مركز المدينة وملتقى شوارعها. وفي أحد عصاري الأيام، باغتني عدنان بإغلاق عيني براحة كفيه، جلس بجانبي، وتحدثنا عن العراقيين وفكرة الهجرة إلى أوروبا وأستراليا ونيوزيلندا.

تكررت لقاءاتنا في المقاهي، في شارع جمال، في باب اليمن، في كل زاوية من صنعاء، حتى صار حضوره مملًا، كظلٍ لا يفارقني. لم أكن أعلم ما يضمره، كان بابًا مغلقًا، ومفاتيحه التي منحني إياها كانت مزيفة.

في آخر لقاء لنا، التقاني في مقهى التحرير، كنت أجالس وحدي، فجلس بجانبي وقال:

"سامحني، والله مشغول، اليمنيون يتأخرون في دفع الأتعاب، حتى بعد إنجاز العمل لا يسلمون المبلغ كاملًا."

قلت له:

"لماذا لا تفتح ورشة خاصة بك؟ أنت ماهر ومعروف في السوق."

رد: "أحـاول، لكـن السـيولة لا تكفـي. هنـاك فرصـة عمـل فيهـا ربـح عشـرون ألـف ريال خـلال يـومين، أحتـاج أربعـة آلاف ريال فقط، وسأعيدها لك مضاعفة خلال أسبوع."

لـم أسـتطع أن أرفـض، فـالجيرة القديمـة، والصـداقة، واحتـرام السـن، كلهـا دفعتنـي لمـد يـد العـون. أخرجـت المبلـغ مـن جيبـي، وسلمته له دون تفكير، ثم عانقني وغادر.

لكـن عـدنان، كشـيطانٍ يعـرف مـن أيـن تُؤكـل الكتـف، سـلب المبلـغ واختفـى. غـاب عـن وجهـي، عـن الشـوارع، عـن المقـاهي، عـن الوجـود. بحثـت عنـه أربعـة أشـهر دون جـدوى، حتـى استفسـرت عنـه مـن صـاحب الورشـة التـي عمـل بهـا، فقـال لي:

"هـذا نصـاب معـروف، فاسـد، خمـار، زانـي، مطلـوب للشـرطة، لا يستقر في مكان، يسمونه الزئبق."

كـان لغزًا، كأنـه تبخـر، كأنـه لـم يكـن. حتـى جـاءت الصـدفة بلقـاء محمد وسيروان في شارع جمال، فسألت سيروان:

"هل تعرف أين يعمل عدنان؟"

رد فورًا: "هل أخذ منك نقودًا؟"

أجبته:

"نعـم، أربعـة آلاف ريال، قـال إنـه سـيعيدها خـلال يـومين، لكنـه اختفى من اربعة اشهر."

قال:

"هو نصاب، لا محل له، لكنه موجود، تعال معي إلى مقهى اليمن في شارع هايل."

وفي الطريق، شرح لي سيروان عن أخلاقه المنحلة، عن حالات النصب التي مارسها، حتى مع أقرب الناس إليه. قال:

"عدنان مريض نفسيًا، يمكنه أن يصنع ذهبًا بيده، لكنه وضيع، خسيس، منحل، يعتصر الفساد كما يشربه."

وصلنا المقهى، وسألنا عنه، فقيل إنه مختفٍ منذ يومين. قال محمد: لا تهتم نجده، انه خمار، قمار، فاسد، يصرف كل ما يحصل عليه على الخمر والزنا. رأيته مع فتاة عراقية، قال إنها زوجته، لكنها قحبته من بغداد."

وأضاف:

"لو عرف كيف يمسك يده، لكان أغنى رجل في اليمن. يسمونه الزئبق لخفة يده ودقة عمله، رغم أننا مهندسان، إلا أنه يتفوق علينا."

قال سيروان:

"لا تهتم، تحت يدي عمل بمئة ألف ريال، إن لم يعيد لك المبلغ هذا الأسبوع، لن أرسي عليه المقاولة."

وفعلًا، بعد يومين، جاء عدنان برفقة محمد وسيروان، سلمني المبلغ، معتذرًا، ناكسًا رأسه. قلت له:

"سأغلق فمي احترامًا لهذين الأخوين، لكني لا أريد أن أرى وجهك ثانية."

بقي صامتًا، لم ينبس بشفة، وودعت محمد وسيروان شاكرًا.

ما يغيظ في الأمر هو النصب على القريب، على الصديق، على من منحك الثقة. فهؤلاء، مهما بلغت مهارتهم، يطفئون كل شذرات التاريخ برمشة عين، ويمحون أنفسهم من الذاكرة، فلا يُذكرون إلا باللعنة.

بقايا الكأس

فيما مضى كانت الدعارة ككار منتشر في مراكز معينة من أرجاء البلد، على قلتها كانت تفي بالغرض المبتغى للعازب، هذه الأماكن مرخصة من قبل الدولة، للحفظ على نظافة المدن من التشوه والقبح، معلوم إذا ما وضعت الخلايا الخبيثة بجوار النظيفة السليمة؛ ستنقل إليها ماهيتها. فالنفس أمارة بالسوء، ومعظم اللاتي يعملن في الدعارة هنَّ من أصول غجرية، وقلة من اللاتي انحرفن وسلكنَّ طريق الرذيلة والزنا.

حينها كان قد هفا بي الشوق لزيارة أحد أوكارهن، لأستمتع بجسد انثى للحرمان الذي كنت اشعر به، لأتلمس أنوثة فاتنة عن قرب وحرية، كنت أهجس بذاتي كالنبتة الجافة ابغي إروائها من جانب، ولأدرك قدرات ذكوريتي من جهة أخرى. كنت لازلت في ريعان الشباب، في بداية سن البلوغ، دخلت دارا من الدور المشتبهة بها في منطقة الميدان، قادتني الصدفة اليه، حينها كنت اتبع قافلة من المهزومين، المهمومين، الغائرين في عقدهم والجانحين بهوسهم، بيوتات بالية خربة، آيلة للسقوط، مهجورة، استغلها عدد من القادية في جمع مجموعات من النسوة البغاة في تلك الدور لتسليك عملهن ومنفعة جيوبهن. عندها كانت لي رغبة جامحة بممارسة التجربة مع أي مومس في تلك الأوكار العفنة لأطفئ نار الشبق في اعماقي.

ولجت في فرع من الفروع خلف بعض الوجوه البائسة التي ترتاد هذه الأماكن العفنة باستمرار، انحدرت مع تلك الوجوه العابسة، التائهة، الضائعة، الغائرة في شجون ذكوريتهم، وجوه مفلسة من نعم الله وهي تروج في تلك الأمكنة كالدبيب، تبحث عن غواها ومناها في تلك الأماكن الرطبة، الموبوءة، بعيدا عن الفضائح، لتطفئ نار الغريزة المتأججة في دواخلهم بنفاضة عاهرة والتي هي أكثر بؤسا وشجنا منه. تبحث عن الذات التائهة والمنحرفة بين أجساد ذابلة، مصفرة، شبعت آثاما ومهانة وانحطاطا.

كنت أحد هؤلاء الدبيب اتبع العارفين وذوات الخبرة، أبحث عن لغز الأنثى ولون السحر المغروس في منابت الشهوة، عن التاج الذي به أتوج ذكوريتي بشكل من أشكال الكرنفال والوله قبل أن أدخل فردوس الحياة، كنت أتبع اللحظة بشغف وجنون، أن أبرد الرغبة الملتاعة في جوفي، أن أعين الأنا المريضة، متبعا دروب الغريزة المحتقنة في أعماقي كالأعمى، لأروي ظمأ النفس العطشة للجنس، تلك كانت تجربة جزلت بها إرهاصاتي وقومت بها رشدي..

في الحقيقة كنت أبحث عن بلسم صبر أنعم به خشونة شبابي، أزيل طفح الإرهاصات الشائبة والمتأججة في أنفاسي، أبحث عن صيدلية إغواء ودواء في جسد فاتنة. وددت أن أنتشل غايتي المرهقة والمريضة من عجز كنت أشك به قائم في جسدي، أو بالأحرى وددت أن أبحث عن ذاتي بين تلك الأفخاذ المكتنزة، لزرع ثقة في النفس

المتزعزعة بقدرات رجوليتي، لكشط عث الخجل عن غشاء النفس الملتحفة بالعفة، حتى أني كنت فيما مضى أخجل من أن أستميح النظر إلى وجه فتاة تعجبني.

وقفت في مدخل أحد الأبواب المفتوحة على مصراعيها، حيث يقفن في فنار البيت مجموعة مومسات بين خمسة إلى سبعة فتيات شبه عاريات، تتراوح أعمارهن بين العشرين والأربعين سنة من العمر، متراصفات في نسق أمام الداخلين للدار، كنت حينها أبن العشرين سنة من العمر، كل منهنَّ تود نثر ودها على قدمي، تحاول استمالتي لشاطئ رقتها المضطرب. تحاول أن تسرق جوهرتي بعملية أغرائي بمفاتن جسدها، لقد عرضنَّ عليَّ بضاعتهنَّ دون خجل...

كنَّ خليطا من البغاة يؤممن تلك الاوكار من عاملات وموظفات وفنانات وغجريات وربات بيوت...الخ اجتمعن على الخسة، يبتغين كار البِغاء من أجل المادة والمتعة.

على أية حال اجتذبتني أحدى الفاتنات ذا بشرة رقيقة مشبعة بخمرة السمرة الشفيفة، ناعمة الملامح، رشيقة القوام، متوسطة الطول، واسعة العينين، كرزية الشفاه... أخترتها من بين المجموعة للجاذبية التي وجدتها في سمرة البشرة ولنعومة ملامح الوجه. كانت هادئة، غارقة بابتسامة لطيفة، رمتني بسنارة عينيها فتعلقت في حشاشة القلب، تعلقت الروح بخيط واهٍ من سحر مدفون في وجهها البشوش، هجست بها أكثر هن رواقا وهيجانا وعذوبة، هجست بها كجمرة ملظة لامست عصف الريح، فسال الرضاب على

طـراوة الشـفاه بسـر النضـارة الذائبـة فـي البشـرة، لتمـوج تلـك الجاذبية في قدحية العين.

حـين مـددت أليهـا يـدي اخـذت بـي كالضـرير، قـادتني لغرفـة جانبيـة، إلـى حيـث موقـع النـزال فـوق فرشـة مطروحـة علـى الارض، حاضـنة حقـوي بيـد وبيـد تضـع راحتهـا براحـة يـدي وكأني رفيقها وعشيقها...

حـين لمسـت ضـياء وجههـا براحـة يـدي، أتقـدت أنـاملي مـن شـحنة الـدماء المتقـدة بفتنتهـا، الهبـت أشـواقي بسـحر تلـك الـوجنتين، طفقـت عـاطفتي تخفـق، ارتعشـت أوصـالي، لقـد همـتْ بـي قبـل أن أهـم بهـا، فالتصـق الجسـد بالجسـد كتطـابق الألـواح علـى بعضـها، تماهـت الـروح بـالروح، خـار الجسـد تحـت وقـع الـدفء المشـع مـن ثناياهـا، ذابـت انفاسـي بأنفاسـها، تلاطمـت أمـواج البحـر، رمتنـي علـى شـواطئ الأنوثـة كسـمكة لا تحتمل شمس الغريزة لشدتها..

قبلتهـا مـن خـدها الناصـع، شـعرتُ بخـدر لاح حراشـف الشـفة، تكهربـت بـوميض بريـق سـمرتها. بحـذق مـن ألـق نضـارتها ونعومتهـا، سـرى وهـج الشـغف فـي ثنايـا الشـهوة، انتبـرت عـواطفي كشـمس فـي سـماء النشـوة، بانـت تشـع وجـدا وشـوقا وحنينـا ومـودة فـي جسـدي، توهجـت شـمعة ذكـوريتي بتـوهج زهرة أنوثتها على طاولة الرغبة المشاعة في أعماقنا.

نضـت ثوبهـا المخملـي مـع نـض ثيـابي، كانـت ترتـدي جلابيـة شـفافة صـيفية صـفراء اللـون، كشـفت عـن بقـاع العشـب وصـفاء

المعدن التي تغويها، بان جسدها المتناسق اللطيف تحت الضوء الخافت ككهرب مضاء لصحراوية المفاتن، أرتمت على الفرشة كقطعة أثرية ساكنة أمام هياج الريح ليكش عنها غبرة الغريزة، طربتها موجات اللطف حين لامست الشغف المدفون في أعماقي، داعبتُ مواضع الشهوة والحنين. عبثتْ بصور عواطفي، بدت تتلوى في مكانها، كأفعى الاناكوندا تحاول أن تلتف على جسدي. عندها وجدت بين الحلمتين الورديتين مسرى لأنفاسي، رميت عليها شبكة الرغبة. بت أشم عبير رواقها، بيدي أداعب ثديها، وبفمي أشتد وثاقهما، فاشتد بهما الألق، أهتز غصنها مع شدة عصفي، تمسكت بي، شدت جسدها إلى جسدي.

لم تكن بدينة، ولم تكن نحيفة، لها صدر متدفق بحيوية، وصرة ضامرة في مساحة البطن تشبه دوار أمواج متعاكسة، تبدو كقمر يتهادى وسط سحب سمحاقيه تزيد الجسد فتنة وبهاء.. كان يطغي على حقوها وبطنها ترهلات بسيط، أثر حمل قديم شهد عليها، أضحت الخطوط البيضاء راكدة تحت محيط الصرة. فيما تهجس بـ ثأدة الفخذين مكتنزتين مشبعة بالنشوة، مسحوبين بدقة من الكاحل لمحيط الأرداف بتناسق مبهر.

دخلت لوكرها أشبه بالأسد المفترس، راغبا أن ألوك مبتغاي في صحنها بعطش المراهقين، حيث كلما لامست طرفا منها؛ زدت هياما بها. بمفاتنها حثت أعضاء جسدي على الاتقاد

والانـدفاع بمجانــة نحــو لآلــئ مفاتنهــا، غزوتهــا بــطاقة تفـوق القدرات المكنونة في جسدي....

كمــا أن لرقتهــا وعذوبــة لســانها، وهــوس جنونهــا بــي، ولســعة الشـهوة الداكنــة فــي ذاتهــا، التــي بهــا واجهـت غريزتــي وأوقـدت شـمعة ذكـوريتي؛ كـان لهـا الفعـل الحسـن فـي تـأجيج الشـهوة فـي داخلـي. رغبتهـا القويـة بـي حملتهـا علـى مداعبـة موضـع الشـهوة فــي جسـدي، فهــي لا تقـل عنــي شـغفا ورغبــة أطلاقــا، وجـدتها كــالفرس الجامحــة متأنقــة برشــاقة حركاتهــا فــي ميـدان وجـدي، تحركـت بلهفــة مجنونــة حــول الرغبــة الجامحــة فــي أعمــاقي، كهربــتُ بشــرتي، لســعتني، أفرغــت ســمومها فــي جســدي، فلذعتُ بوهجها المصطلي.

ســايرتها، دخلـت معهــا لعــالم الغيبوبــة؛ حتــى ســاح ريقــي علــى ثنايــا الجسـد فــي ظـل صـمت تسـيد الأجـواء، ترطبـت شـفاهي ومحيـاي وفكـري وذاتــي بــ ريـق عـذوبتها، حملـت نفسـي علـى فك عقدة الشبق الغائرة بين مناكب الجسدين.

ألجـأت الرغبــة فــي صــرة الشــوق؛ حتــى انفلجـت نوافـذ الشـبق، حتــى تشــبعت ثناياهــا بــزلال عصــفي وإرهاصــاتي، حتــى تراخـت بقايانـا وانفلتـت جوارحنـا ليفتـرش بسـاط الصـمت أمـام أعجـاز فيضـي والنشـوة الـدائرة بيننـا، ذلـك مـا طغـى علـى عالمنـا لبرهــة زمــن بعــد أن التصــقت هواجســنا وتطابقــت أعضــائنا واهوائنا على بعضها كتطابق الاشياء.

فبعد أن قطعنا شوطنا بنجاح، بعد أن عبرنا الحواجز والعوائق التي واجهتنا ونحن نجهد ونجتهد في تذليل العوائق النفسية بتعاون منقطع النظير، للارتقاء بالشبق لدرجة الوله، تشبعت مناهلنا ورغباتنا المكبوتة، حتى توجت ذكوريتي بتاج زهرتها... لقد وجدتها قطة أليفة، لم تبخل بعطفها ودلالها بكرنفال احتفالنا..

معروف عليهنَّ أنهنَّ منزوعات العاطفة والرغبة، نتيجة التكرار والروتين التي يرافقهنَّ في كارهنَّ، لذا تفقد الشهوة واللذة والرغبة الحقيقية، نتيجة روتين الممارسة، فهنَّ لا يشعرن بالجنس إلا ما ندر، أنما غايتها المادة والابتزاز و البزنس فقط...

وقبل أن أودعها كنت قد سألتها وهي لازالت مغمورة بسيل عواطفي، نائمة تحت جسدي مفروشة الفخذين تحت رغباتي، مغشي بأنوثتها في ملحمة قل نظيرها، فقلت لها مستفسرا:....

- أرى على بطنك خطوط حمل، هل أنت متزوجة ؟
- نعم! أنا أم لطفلين، وفي نهاية كل شهر أشكي لزوجي فاقتي ومتطلباتي، حتى استولي على نصف مرتبه. أنه مسكين لا يُمانع في إرضائي، ثم أتردد إلى هنا بين آونة وأخرى، لأجمع ما أجمع من مال، فالمرأة لا تشبعها خزائن الدنيا.
- هل تحبين زوجك؟

- أنه أبو أطفالي، وهو طيب.
- وما ذنب زوجك؟ -- أليس من وضع ثقته بك؟
- بــلا وهــو يظــن كــذلك، وللعلــم أنــا موظفــة!... لا يكفينــي مرتبــي، ومــا أأخـذه مــن زوجــي ومــا أحصـل عليـه هنـا، كـل ذلـك لا يسـد طمـوحي ورغبـاتي، فهنـا أجــد ملجــأ لملــذاتي الجنســية والماديــة، النقــود تغريني.

بقيـت صـورة تلـك المـرأة الزانيـة معلقـة بجـدار ذهنـي، جعلتنـي أعمم سلوكها على كل نساء الأرض، جعلني أكره الزواج..

بعـد فتـرة شــهر مــن تلـك الممارســة، بـدأت تظهـر تقرحــات وحبـوب علـى قلـف وجلـد قضـيبي فيهـا حرقـة وألـم، أيقنـت بأنـه عقــاب ربــاني علــى جريرتــي لإصــابتي بمــرض زهــري أنتقــل منها إليَّ.

غيرة القواد

لم يكن لداود يدٌ في اختيار مهنته، كما لم يكن له يدٌ في اختيار أمه أو موضع ولادته. جاء إلى الدنيا مكبلًا بسلاسل الخسة، محاطًا بسواد البخت والمصير، مرتديًا ثوب العار دون رغبة منه، وكأن القدر قد قرر أن يكون ديدنه في الحياة هو السقوط، لا النهوض. لم يكن كالثعبان الذي يخلع جلده، بل ظل حبيسًا في جلده الملوث، سقط حظه العاثر كحجر صوان في بركة الرذيلة، فغرق فيها حتى النخاع، وتجرد من كل هبات الدنيا الجليلة.

ولد على الفطرة، لكن فمه كان يلوك ملعقة الفساد، ليكون طُعمًا لفم الزمن، متحملًا قسوته وشقاءه. سقط قبل أن يولد، قبل أن يدرك الدنيا، قبل أن يعرف أن هناك عقابًا ربانيًا قد يطال من لم يقترف ذنبًا. داود، ذلك المسالم الذي لبسته الذنوب وهو بريء منها، حاصرته الظروف فألبسته تاج الخسة وأسمال الثياب، ونُسبت إليه الآثام دون أن يختارها، كان مسيرًا في ظرفه، لا يملك من أمره شيئًا، ولد والحبل السري للعار يقمط جسده.

لم يعرف أباه، فقد جاء إلى الدنيا كطفل غير شرعي في بيت تفوح منه رائحة الدعارة، التصقت به صفة الرذيلة منذ اللحظة الأولى، لا لذنب اقترفه، بل لأن أمه كانت مومسًا، مارست البغاء مع رجالٍ لا تعرف أسماءهم، فحبلت به،

وولدته في ذات الوكر الذي شهد لحظات خزيها، دون أن تمنحه حق الاختيار أو حتى اسمًا يليق بإنسانيته.

كبر وكبرت معه الكراهية، تدرجت أمه من مومس إلى قوادة، علمته مهنتها، فشب في ظلها، وذاع صيته حتى عُرف بين الملأ بداود القواد. ورث عنها وكرًا للرذيلة، ووسع نشاطه، حتى ارتبطت علاقاته بسياسيين وتجار ومنحرفين، أولئك الذين يخشون على سمعتهم، فوجدوا في وكره ملاذًا يخفي هوياتهم. كان يوفق بين الزبائن والعاهرات، ويؤمن لنفسه موقعًا ونفوذًا لا يُضاهى، حتى صار لا يقف أمام رغباته شيء، وتمكن من السيطرة على أصحاب القرار والنفوذ.

ولد بين الأزقة المشبعة بالرطوبة، كبر وهو ابن كارٍ فُرض عليه، عرف البذخ والفسق والسكر وزيغ النساء، تشبعت أفكاره بالموبقات، أدمن المسكرات، ومارس الرذيلة قبل أقرانه، حتى مسخته الظروف عن قيم المجتمع ومبادئه. كشطت عنه الغيرة، وسلبت منه العزة والكرامة، حتى نسي ذاته وقدره، عاش وحيدًا في زنقته، لا يعرف من الدين سوى اسمه، لم ينتبه لمنائر المساجد، ولم يسمع صوت الأذان قط. لم يعرف من ألوان الحياة سوى الأسود، ولم يسلك طريقًا سوى ذلك المظلل الذي سلبه من المجتمع.

عاش شبابه كالأعمى، لا صديق، لا حبيب، لا رفيق، لا خيار سوى عصاه التي يهش بها العاهرات. الكلمات التي يسمعها تكاد تكون غريبة عليه، لا يميز بين الشرف

والخسة، إلا بعد أن شابت ذوائب رأسه وابيضت لحيته. الأسماء لا تعنيه، فهي مجرد كلمات في قاموس اللغة، لا تحرك فيه شعورًا، ولا تثير فيه معنى. امتزجت المعاني في ذهنه، واختلطت الأمور، حتى بات يعيش في عالم لا يفرق فيه بين ألوان الطيف، كلها تجسدت في لون داكن واحد.

وحين هفا بي الشوق لزيارة أحد أوكار الدعارة، كان داود مديرًا لها. دخلت أحد أوكاره برغبة جامحة، أود أن أجرب فروسيتي في ميدان الوله. رأيت خليطًا من العاهرات: عاملات، موظفات، فنانات، غجريات... وقعت عيني على إحداهن، ادعت أن اسمها بثينة، وهو اسم مستعار، اكتشفت لاحقًا أنها راقصة في الفرقة القومية للإذاعة والتلفزيون، ثم أصبحت فنانة مشهورة.

سألتها بعد أن مارست الرذيلة معها:

- تبدين من ذوات الأصول، ما دعاك إلى هذه الأماكن الضحلة؟
- وما دعاك أنت؟
- التجربة.
- دعتني المادة، أنا مطلقة ولي طفلة عمرها أربع سنوات، الحياة لا تطاق، مرتبي لا يكفيني...
- لماذا لا تعودي لزوجك؟
- مفلس لا يملك شيئًا.

تركتني كلماتها فريسة للشك، كنت حينها فتيًا يافعًا، لم أستوعب حقيقة انحرافها، لما تملكه من فتنة وقوام رشيق، بقيت صورتها معلقة على جدار ذهني، جعلتني أعمم سلوكها على كل النساء. صرت أراقب أمي، أشك في بنت الجار التي أعشقها، أتخيل جسدها، يراودني طيفها في المنام، تفرض عليّ حالة الاستمناء في خلوتي، حين يشتط الذهن لحلاوة جسدها.

تركت تلك المومس خارطة الرذيلة في ذهني، جعلتني أسمع صوتها يتردد على مسامعي، كلماتها تجلجل ذاكرتي، طيفها ينبثق من وسادتي. لكنني أتذكر أيضًا تلك العفيفة التي زجرت عماد كشخه حين حاول معاكستها، انفجرت بوجهه، رمته بحجر الفضيحة، كسرت شوكة غروره، لم يعد ينظر إليها إلا بعين الانكسار والندم.

بعد أن عدت من الأسر، بعد خمس سنوات من الحرب مع إيران، لم أدرك حجم الخسارة التي نالت من عمري، رجعت أحاول الانسجام مع المجتمع، أبحث عن لقمة العيش، وعن فتاة أحلامي. تجاوزت الثلاثين ولم أحقق شيئًا، هربت من واقعي إلى كلمات تلك المومس، التي حشرتني بين فقري وديني وخيانة الزوجة.

لكن الله لا ينسى عبده، اقتنعت بزوجة عفيفة، ساعدني والدها على اقتناء سيارة أجرة، صرت أعمل بها ليلًا ونهارًا، أبحث عن رزقي، أحاول أن ألحق بركب الأيام التي خسرتها، لأمحي جزءًا مما رسمته تلك العاهرة في ذاكرتي.

وفي يوم، جمعت مبلغًا جيدًا، وضعته بين يدي زوجتي، تهلل وجهها، قبلتني من جبيني، شعرت بعفتها وكرامتها، احتضنتني، لوت قامة الشك في ذهني، صرت أغرم بها يومًا بعد يوم، أضحى الجمال يأخذ منحى آخر، جمال الروح والطيبة والذوق. ومع ذلك، بقيت نغصة الشك التي زرعتها تلك الغانية تغز الفؤاد، لم أستطع أن أمحي صورتها وكلماتها من الذاكرة.

وفي أحد أيام الصيف القائظ، كنت أتنقل بعجلة التكسي، أوقفني رجل خمسيني، طلب أن أوصله إلى باب الشرقي، جلس إلى جانبي، يمج دخان سيجارته، عيناه تبحلقان في وجهي، لم ينبس بكلمة، وأنا كذلك.

في الطريق، أشارت فتاتان لي، يتصبب العرق من وجوههن، أردت أن أقلهما، لكنه رفض، قال برجاء:

- أرجوك لا تقف، سأعوضك عن الأجرة كاملة.

أذعنت له، لم أذعن للشمس ولا لرحمة الله، رضخت لطلبه، فهو صاحب الحق. مضيت في الطريق، وسط الزحام، حتى وصلنا. قبل أن ينزل، استوقفته:

- بالله يا عم، لمَ رفضت صعود الفتاتين؟
- يا هذا، ألا تعرفني من أنا؟
- آسف يا عم، لم أرك من قبل، أنا سائق جديد...

- أنا...أنـــا داوود القـــواد، أنـــا أبـــن هـــذه المنطقـــة ومعـــروف فيهـــا، بـــل أجـــزم أكـــاد أعـــرف كـــل عـــاهرات المنطقـــة. ممكـــن أن تســـميني مختـــار عـاهرات بغداد، لـن أخجـل مـن مهنتـي كـوني تربيت فـي أحضـانها منـذ الصـغر، لا أعـرف كـارا غيـره، لـذا أصـبحت الخبـرة مترسـخة فـي ذهنـي تمامـا. أعـرف كيفيـة التعامـل معهـنَّ واقـبض مـن الآخـرين بحرفيـة، لكـنْ صـدقني أنهـا مهنـة وسـخة، قـذرة وحقيـرة، تجرعـت سـمها ومرهـا علـى مضـض، جاريتهـا العمـر كلـه مغصـوبا، كـان القـدر قـد سـبقني فرمـاني بأحضـانها.. أجـزم لـك بـأن تلكـا الفتـاتين منظـرهن لا يـدل علـى أنهـن مـن العـاهرات، أراهـنَّ علـى أنهـن بنـات أنـاس محترمـات، أراهـنَّ علـى عفـتهن وشـرفهن، فلـيس كـل طيـر يأكـل لحمـه، بعـض الطيـور لحومهـا مـر. هكـذا علمتنـي التجـارب وعلمنـي الـزمن، أعطـاني خبـرة وبصـيرة فـي هـذا الشـأن-- لـذا لـم أرد أن يـراهنَّ أحـدا مـا مـن النـاس العامـة وهـن جالسـات بقربـي، فينظـر إلـيهنَّ نظـرة دونيـة ناقصـة، فيتوسـخن بقـذارتي. يـا عزيـزي الشـرف غـال وعزيـز جـدا، لـن يشـعر بقيمتـه إلا مـن أفتقده.
- أشـكرك علـى صـراحتك يـا عـم، لقـد انتشـلتني مـن هـم أكـل مخـي، لـم أكـن أعـرف للقـواد غيـرة علـى بنـات النـاس، لـذا علـى الـرغم مـن دانئـة عملـك هـذا

الـذي تشـبث بـك أو تشـبثت بـه، مـن غيـر أن تكـون لــك إرادة، أنمــا جعلتنــي أكــن لــك احترامــا جليــا تسـتحقه لشـهامتك، كأنـك أزحـت بقايـا شـوائب علقـت فــي ذهنــي وقلبــي منــذ زمــن بعيــد..... فــ والله لــن أأخـذ منـك أجـرة التكسـي، لقـد أغنيتنـي، مـا تعلمتـه منك زادني راحة وسكينة، شكرا لك ولصراحتك.

- يـا بنـي أنـا لـم أختـر مهنتـي، وهـذه المهنـة لـم تـدع لـي فرصــة العـيش بكرامــة ونزاهــة كبــاقي الخلــق...لم أكـن أفهـم سـر الحيـاة، أو أهـتم بهـا كمـا يجـب إلا بعـد أن غـزى الشـيب رأسـي. لا تقـيم كـل النسـاء بمنظـار واحـد، فالنســاء التــي بمعيتــي كلهــن ناقصــات عقــل ودين، ليس لهن دراية كافية بمعنى الشرف.

حينهـا تركتــه وفــي قلبــي شـعلة نصــر وأمــان تضــيء سـبيلي، مضـيت أحفـر جـوف الـزمن، أبحـث عـن صـور العـزة والكرامـة بشــرف الــرزق، ففــي ذاك اليــوم ختمــت علــى أوراق شــرف زوجتـي الغاليـة، حـذفت خطـوط الشـك نهائيـا مـن ذهنـي وأطـره، نسـيت مـا أملتـه علـى فكـري تلـك الغانيـة. بـل بصـم القـواد داوود علــى عفــة زوجتــي والنســاء دون أن يعــرفهن، بــذلك محيــت وللأبد؛ صورة تلك الزانية بثينة.

كمـا أدركـت بيقـين- بـأنَّ القـواد أشـرف مـن بعـض سياسـي البلـد الــذين يتــاجرون بــأعراض وشــرف العفيفــات مــن النســاء لأغراض أمنية وشخصية وسياسية.

فلم ينطق المتنبي (رحمه الله) إلا درر...

ذلَّ من يغبط الذليل بعيش ---- رب عيش أخف منه الحمامُ

من يهن يسهل الهوان عليه ------- ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

البصمة

استفاق من نومه على هاجسٍ نابعٍ من حسه المرهف، ذلك الحس المغمور بالرقة والإحساس، والمشحون بمشاعر جياشة تجاه دينه، وقومه، وناسه. كان شعورًا شفافًا، ينساب بنعومة الملمس الحريري، يعانق وطنه الذي غادره، والبلد الذي احتضنه مهاجرًا.

لم يكن من المتسولين أو العابثين، ولا من أولئك الذين أغوتهم السبل والطمع، بل كان إنسانًا بسيطًا، يملأ قلبه شغاف الحب والعمل، من الذين عمدوا ذواتهم بالإيمان والسؤدد. دفعته ظروف بلده القاسية إلى الرحيل، باحثًا عن وجهة أمان يستقر فيها، خوفًا على نفسه وأطفاله من بطش الزمن، ومن غدر الغادرين. كان يخشى أن تُطمس هويته تحت أقدام العصاة والغزاة والخونة المتنفذين، أولئك الذين يتلذذ العدو بسحق الأبرياء على أعتاب فكر رجعي، وأتراس عقائد دنيوية، بعيدة عن جذور العلاقة بالتاريخ والوطن.

استفاق هاجسه على ربتٍ من حسه المرهف، كربت الودق حين يلامس الأرض، دكت مشاعره بندى الود ورهافة الحلم. اهتز ظنه في أعماقه، وتساقطت أوراق الكسل عن جسده، فغدا التناغم فطريًا بين ثنايا الصمت والحلم المتقد. رغبة جياشة راوغت داخله، تفجرت بفيض عزمه وإصراره على رفد تلك المشاعر بيقين من خيوط الشمس، تلك التي تأبى أن تراكم قلقها قبل أن تستكين الأحلام في مواضعها.

صار يتساءل مع نفسه، ويجيب ذاته، وهو يدور في دوامة صراع فكري شغل باله في ذلك الفراغ المطلق: لماذا لا نثبت لهؤلاء الغزاة بأننا أعمق منهم، أكثر إنسانية، وأعرق حضارة؟ هؤلاء الذين شوهوا صورتنا كمسلمين وعرب في أعين العالم، عبر إعلامهم المزيف. لماذا لا نعكس الصورة الحقيقية التي تمثلنا؟ كلٌ منا من موقعه، حسب إمكاناته، يجب أن يقاوم همجية الغزاة، بأن يكون في واجهة التحدي، بما هو ممكن ومستطاع.

نحن هنا، كمهاجرين، كأغلبية، نستطيع أن نواجه أعداءنا من مواقعنا، بعملٍ يظهر حقيقتنا، ويغير نظرة المجتمع إلينا. عملٌ جاد، يعكس ثقافتنا، معنويًا كان أو ماديًا، يمثل مشاعرنا، يرفع من شأننا، ويعبر عن معدننا الطيب.

أعداؤنا خبث، دعنا نكشف زيفهم ونواياهم للعالم، ندمغهم بالحقيقة، ونزيح هالات الغموض عن أعين الآخرين، تلك التي ما عادت تمطر سوى سموم في وجوهنا. دعنا نحرق صور ادعائهم الزائف، فدائمًا ما يكون للحق سطوة على الباطل، فيزهقه.

نعم، صورتنا مهزوزة في أعين العالم، بفعل قوة الإعلام الغربي، أمام ضعف تحركاتنا. هم يتحركون على نطاق دول ومنظمات، بأجندات وعملاء، يؤازر بعضهم بعضًا، ونحن نتحرك في أزقة الأحلام الضيقة، كأفراد منفصلين، تكاد

المقارنة لا تُقاس ولا تُقرأ، باهتة، ضعيفة، لكنها حية في عيوننا، وضمائرنا، وقلوبنا.

للحجر شأنٌ وفعلٌ في صنع الأمواج المتعاقبة، إذا ما سقط في جوف بحيرة راكدة. وللبحيرة ردة فعلٍ تجاه الحجر الساقط، إذ تنفعل، وتزج بكتل الأمواج الراقصة بين أعين المغرمين بها، دلالة على رفضها للعبثية التي أثرت على سكونها.

بسمط الحجر، تتحرك الروح في جسد البحيرة، فتخرج عن طور السكون إلى طور الديناميكية. حينها يختلف المنظر عما سبقه، وتختلف زاوية الرؤية، وتتنوع أبعاد الفكرة عند الناظرين، كلٌ حسب موقعه. ستكون أكثر قبولًا وجاذبية للمفسرين والمتتبعين، وهكذا سيكون لتحركنا تأثير يوازي تأثير البحيرة.

نحن الآن نعيش في عالمٍ لا يعدو كونه قرية صغيرة، بفضل الإنترنت، والكمبيوتر، والموبايل. علينا أن نستغل هذه الميزة، نصور نشاطاتنا، نبث كل ما نستطيع أن نثبت به أصالتنا وهويتنا، نعبر عن غاياتنا، عن أهدافنا المرحلية والبعيدة، نوضح المبادئ التي تشربناها من منهلها، نثبت للعالم أجمع أن ثيابنا طاهرة، ناصعة البياض، وقلوبنا فسحة محبة، تتصف بالرهافة والرقة، عكس ما يصوره الأعداء في خدعهم وتشويههم لنا.

نحن لا نعرف الموت كما يُعرّف عادةً؛ فالموت في نظرنا ليس فقدان الروح، بل هو سكونٌ مطلق، تجمّدٌ للعقل، وانطفاءٌ للمشاعر. الموت الحقيقي هو أن يُحبس الإنسان في فريزر الخوف والجبن، أن يُقصى عن دائرة الفعل، ويغدو كائنًا جامدًا لا يهش ولا ينش، كما يقول المثل الشعبي.

هذه الحياة لم تُخلق عبثًا، ولم تُمنح لنا لنركن إلى زوايا الخمول وننتظر دنو الأجل. علينا أن نتحرك، أن تَحفّ أقدامنا الطرق، ففي كل خطوة يكمن هدف، وفي كل سعيٍ معنى. الحياة تحمل سر الوجود الإلهي، ونحن كبشر ننجذب إلى ذلك السر دون أن نشعر، نستشعر تجددها، وندرك أن الكون لا يعرف السكون، بل يتحرك بأسره في دورانٍ أبدي، من الشمس إلى الكواكب والنجوم، كلها تدور في أفلاكها بحركات لولبية، كأنها ترقص حول قرص الفردوس، فتُبهر الناظر بعظمة الخالق، الذي قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.

هذا الوعي الإلهي يدفعنا إلى رفض الاستكانة، إلى العمل الذي يمجّدنا في أعين من لم نرَ منهم إلا طيبة النفس وكرم الضيافة.

في صباحٍ خريفي، جلس يتأمل، والأفكار تتدفق في ذهنه كالعواصف، لا يعرف استقرارًا. يدور حول نفسه، يتفحص الجدران، يتأمل البحيرة، ينظر من النافذة، يبحث عن ومضة، عن بذرةٍ تنبت في هذه الأرض، أو نورٍ يشع في جوف السماء. يسأل نفسه ويجيب:...

مـاذا علـيَّ أن أعمـل؟ كيـف أزيـح شـجرةً شـائكة عـن الطريـق دون أن تـدمى أنـاملي؟ هـل العقـدة فـي الشـجرة أم فـي عقلـي؟ الشـجرة ثابتـة، هـي الأصـل، أمـا العقـل فهـو المتطفـل، لـذا علـيّ أن أدرس محيطها.

كيـف أجعـل مـن هـذه البنايـات والغابـة مـزارًا يؤمـه النـاس؟ كيـف أضـفي علـى الموقـع صـفة السـياحة؟ ربمـا يحتـاج إلـى مدينـة ألعـاب إلكترونيـة أو ملاهـي، لكـن ذلـك مكلـف. ومـع ذلـك، يبقـى الحلم حاضرًا على طاولة الأمد البعيد.

كيـف أمـنح هـذه البقعـة قدسـيةً تشـع بهـاءً فـي أعـين النـاظرين؟ فالمكـان لا يحتـاج إلـى إبـداع فنـي كبيـر؛ البحيـرة موجـودة، والغابـة متاخمـة، الأشـجار مبثوثـة، والشـارع موصـول، والمنظـر بـديع، والسـكن والمطعـم مهيـآن. مـا ينقصـه هـو الومضة الساحرة، سطوع القمر في ليلةٍ داجية.

ربمـا ينقصـه حديقـة حيوانـات صـغيرة، تضـم نمـاذج مـن حيوانـات البـراري السـويدية النـادرة: الأيـل، الوشـق، الرنـة، الـدب، الأرانـب، الغـزلان، والطيـور مـن بـط ووز ونعامـة وبجـع ولقلـق وكـروان وفلامنكـو... هـذه الحيوانـات، مـع الطبيعـة الخلابـة، سـتجعل مـن المكـان واجهـة سـياحية مميـزة. وقد تكون الغابة المجاورة لملعب الغولف موقعًا مناسبًا لذلك.

لكـن المشـروع يحتـاج إلـى إمكانـات دولـة: صـيد، أبنيـة، إدارة، مـوظفين، خـدمات، وغـذاء يـومي مكلـف. لا، لا... الأمـر صـعب التطبيـق. دعنـي أفكـر بفكـرة معقولـة. كـل شـيء موجـود،

لكن هناك شيء ناقص، شيء ضائع لا يخطر على البال. أبحث عن تلك الومضة، عن البصمة التي تمنح المكان هوية التميز.

بعد الفطور، وقف يتأمل أبو عبدو، رفيق دربه الطويل، عسى أن يعينه على ولادة الفكرة. دار بينهما نقاش لم يفضِ إلى شيء، لكنه زرع في داخله تحديًا صريحًا لمواصلة السعي:.....

- ترى يا أبو عبدو، هل لديك فكرة تنقذني من الصراع الذي يهزمني؟
- ما بك يا أبو وسيم!.. هل جننت؟
- أعاني من ولادة فكرة، لكنها عصية.
- هههه، راجع مستشفى الولادة.
- لا تكن سخيفًا، أنا جاد. أبحث عن البصمة الضائعة.
- ألم تقل أنك تعاني من ولادة؟ هههه. لم أفهم عليك.
- ركّز معي... أريد أن أجعل من هذا الموقع وجهة سياحية.
- بسيطة جدًا.
- هيا، أرفدني بفكرتك.
- غيّر شكل البحيرة إلى دائري، وضع جبلًا مخروطيًا في وسطها.
- لا تكن سخيفًا، أريد حلًا يسعفني.

- أنت مجنون! المنطقة سياحية من أصلها، ماذا تريد أن تفعل بها؟ هل أنت إله لتقول للطبيعة "كن" فتكون؟
- فكرك محدود، لا تخرج عن إطارك الضيق. أنا أريد أن أضع إطارًا لهذه اللوحة الجميلة، أجعلها متميزة عن كل مناطق السويد.
- إذًا، أنشئ مطارًا! يجبر الركاب على المرور بها، ليروا البحيرة والأشجار الباسقة من صفصاف وصنوبر وأثل. الشمس هنا نادرًا ما تُرى، حتى لو أشرقت، لا تتخلل الأشجار بكامل خيوطها.
- والله فكرة... لكن بدل المطار، أفكر بأن أنزل القمر من السماء، أثبته بخيوط في قمم الأشجار، ليكون ليلنا نهارًا دائمًا.
- قلت لك، أنت مجنون!
- حين أبدأ بالعمل، لا تتقاعس، وسنرى من هو المجنون.

كان يفكر دون هوادة، وتراءى ذلك للآخرين، خاصة لأم وسيم، أقرب الناس إليه. تعرفه جيدًا، تعرف طباعه وهوسه، وتعلم أنه إذا شغلت باله فكرة، لن يتخلى عنها حتى يبلغ مبتغاه.

لكنها شعرت بقلق، ما الذي يشغله؟ هل أغرم بغيرها؟ لا، مستحيل. لكنها أرادت أن تعرف، أن تكسر قفل ذهنه، فلم تصبر، وهاجمته بعاطفتها قائلة...

- ما بك يا حبيبي؟ بمَ أنت مشغول؟
- ألا ترين ما نحن فيه؟ لا بد من عمل يثبت من نحن. الإعلام الخارجي ضخم، تحركه أيادٍ خفية معادية لنا. كيف نواجه هذا الزيف؟
- ولمَ تشغل بالك؟ أأنت المعني أم هؤلاء الدواعش؟
- العمل الإرهابي في فرنسا استُغل ليُلصق بنا وبديننا الحنيف، رغم أن شعبنا هناك يُباد، وبلادنا تُغتصب بأيدٍ قذرة. فرنسا نفسها دعمت الإرهاب في سوريا ولبنان وليبيا، وقبلها دمرت تونس والجزائر. بريطانيا زرعت الكيان الصهيوني في قلب الوطن، ليبتز الشعوب العربية. من أعطاهم الحق ليستبيحوا دماء الفلسطينيين؟ من احتل العراق وشرد شعبه؟ من دعم العصابات والميليشيات التي تجوب بلداننا كالوباء؟ من شردنا وأوصلنا إلى هنا؟ نحن لم نكن طرفًا في هذه المصائب، لكننا ندفع الثمن. ألا يجب أن نرد على هذه الكلاب المسعورة بعمل يحفظ كرامتنا؟
- وماذا بيدك أن تفعل؟ لقد شُرّدنا، فما باليد من حيلة؟
- حتى لو شُرّدنا، هناك ما لا يمكنهم السيطرة عليه: قلوبنا وعقولنا. قلوبنا مليئة بالمحبة والإخلاص،

وعقولنا هي السلاح الأقوى، خارجة عن سيطرتهم. نحن نفكر بعكس تيارهم، تفكيرنا نابع من حضارتنا، من ديننا، من أخلاقنا. نحن نؤمن بالحب والعمل، وهم يؤمنون بالقتل والاغتصاب. لن يستطيعوا تجريدنا من نور الفكر. أريد أن أستغل عقلي في عمل يمجدنا كمسلمين وكعرب في هذه البقعة النائية، ليقولوا يومًا: هنا كانوا من نعتتهم الإمبريالية بالإرهاب.

- بالله، أيوجد إرهاب أكثر من إرهابهم لنا؟

أخذ ورقة وقلمًا من ابنته لانا، وبدأ يرسم شكل المنطقة. الورقة قد تعينه على رؤية البصمة التي يبحث عنها، فصغر حجمها يمنحه وضوحًا أكثر من الأرض الواسعة.

- انظري يا أم وسيم، هنا ملعب الغولف، وهنا بناية أوستربو، اسكولان، فاستربو، المطعم، نوريبو، أوليمبن. ألا ترين أن شكل المنطقة بيضوي، يشبه دائرة القطع الناقص؟ البحيرة تحدها من الجنوب، والغابات من الأطراف الأخرى.
- وماذا يعني ذلك؟
- يعني أن المنطقة بحاجة إلى علامة بارزة في الوسط، تشع نورًا على المكان.

ظل هذا الهاجس يشغله: كيف يصل إلى البصمة؟ ما شكلها؟ ما لونها؟ هل هي نجمة في السماء، أم أقرب من حبل الوريد؟

وفـي خضـم تفكيـره، باغتتـه رغـدة، ابنـة صـديقه، بسـؤال بريء:..

- عمـو أبـو وسـيم، كيـف يكـون "العَلَـمُ نـورٌ"؟ لـم أفهـم العبارة.
- لا يـا حلـوة، لـيس "العَلَـمُ نـورٌ"، بـل "العِلْـمُ نـورٌ"... العَلَـم... العَلـم... نعـم! وجـدتها! العلـم هـو البصـمة التي أبحث عنها.

اضـحى يبشـر أم وسـيم، والفرحـة تمـلأ قلبـه. لقـد حُلـت العقـدة، واستُلهمت الفكـرة مـن جملـة عـابرة أخطـأت بلفظهـا طفلـة. نعـم، كـل شـيء فـي الطبيعـة مسـخر لنـا. ألـم يـتعلم قابيـل دفـن أخيـه مـن غـراب؟ علينـا أن نسـتمد أفكارنـا مـن محيطنـا، مـن تجـارب الآخرين، حتى لو كانت بسيطة.

بعـد أن اسـتلهم الفكـرة، قـرر إشـراك الجميـع فـي تنفيـذها، ليكـون لها طابع جماعي.

فـي إحـدى الأمسـيات، اجتمـع مـع لفيـف مـن معارفـه: لـورانس، الـدكتور عبـد العزيـز، أبـو عبـدو، أبـو مـرق (لكثـرة شـراهته)، ترامـب (رجـل مـن حلـب يشـبه الـرئيس الأمريكـي)، وأحـد السـويديين. اجتمعـوا فـي باحـة الجلـوس المطلـة علـى البحيـرة أمام المطعم، وطرح عليهم فكرة إنشاء أكبر علم في السويد.

- يـا جماعـة، عنـدي فكـرة: إنشـاء أكبـر علـم فـي السـويد. أحتـاج مسـاعدتكم فـي التنفيـذ، المـواد، التكلفة... ما رأيك يا دكتور؟
- فكرة لطيفة. هل ينفع القماش؟
- فكـرت أن نجعلـه مـن الحجـر أو الحصـى النـاعم، نرتبـه علـى مسـاحة 200 متـر مربـع، ونصـبغ البقعـة بـألوان العلـم. – الحصـى يجمـع الغبـار. أنـا أفكر بالقوارير الملونة. ما رأيك يا بار؟
- صفائح البلاستيك الملونة قد تكون أفضل.
- لا، البلاسـتيك يتـأثر بـالطقس، يبهـت لونـه، ويجمـع الغبـار. القـوارير قـد تتكسـر. أنـا أفضـل رسـمه علـى جدار إحدى البنايات.
- مـا رأيكـم أن نشـرك السـيدة رنـدا؟ مهندسـة شـاطرة، قد يكون لديها حل.

رنـدا، سـيدة مرموقـة فـي عقـدها الخـامس، تمشـي بخطـى هادئـة، لا يُسـمع لوقعهـا همـس، دائمًـا مـا تنفـرد بـذهابها وإيابهـا لبنايـة أوسـتربو وحيـدة. اسـتأذنها لـورانس للانضـمام، فلبّـت الـدعوة بسرور.

- يـا سـيدة رنـدا، أريـد أن أعمـل صـرحًا كبيـرًا يشـرف أهـل الكامـب: أكبـر علـم فـي السـويد. محتـار فـي المادة. هل لديك فكرة؟
- السـويد مشـهورة بالغابـات، فالخشـب متـوفر ورخيص، ويتحمل تغيرات الطقس.

- يسلم ثمك! فكرة صائبة. الخشب هو الحل.

بدأ يفكر في نوع الخشب، تكلفته، طريقة تثبيته... لم يهدأ له بال، كطائر مهاجر يبحث عن مأوى.

في صباح اليوم التالي، عرض الفكرة على إدارة الكامب، وبالذات على السيد بار المدير. وجد تأييدًا كبيرًا، ونُقلت الفكرة إلى مسؤولي المنطقة والخيرين من أبناء السويد. طلب من لورانس تصميم نموذج فوتوشوب، فاجتهد وقدّم نموذجًا مصغرًا.

ما شغله هو نوع الخشب: هل يمد مساطر خشب؟ هل يفرش الأرض بقطع مضغوطة؟ هل يزرعها كعرانيس؟

- يا إلهي، أسعفني!

ثم اهتدى إلى الفكرة: نزرع الخشب. نقطع المساطر بطول 30 سم، ندبب أحد رؤوسها، ونطلي الطرف الآخر بألوان العلم، ثم ندقها في الأرض كالمسامير. لن تتأثر بالتعرية، ويمكن إعادة طلائها دوريًا.

قال كونفوشيوس: "ما يبحث عنه الرجل المتفوق في نفسه، يبحث عنه الرجل العادي في الآخرين."

وهذا ينطبق على أبو وسيم. عصامي، ينقّب عن الفكرة بأظافره حتى يقطر منها الدم.

لم يتوانَ حتى وصل إلى نتيجة مرضية. بدأ بجولات مكوكية لمخازن بيع الخشب في مدينة كنيستا وفلين. تدخل عدد من الخيرين، وقدموا الأرض، المادة، الورشة، النقل، وكل المستلزمات.

حدد الموقع كما أخبر زوجته: في قلب القطعة، وسط العيون، في مكان تعليق القمر.

ما إن جز الحشائش، حتى اندفع عناصر الكامب للعمل. الفكرة كانت سحرية، أجبرت الجميع على المشاركة دون دعوة. من قطع الخشب، من صبغه، من نقله، من غرسه بالمطارق، حتى تشمّعت الثياب من الجهد والعرق رغم برد كانون الأول. ومن أوصل التيار الكهربائي رغم الثلج. الكل اجتهد كخلية نحل.

الفكرة منحت الجهد ديناميكية سحرية، تناغمت مع تكورها، ارتقت مع التنفيذ، حتى بات الجهد كمصباح يستلهم منه الآخرون.

رُسم شكل القمر فوق كامب صولبكا. ظهرت البصمة كصرح يبتهج به الجميع. السويد ابتسمت لهذا العمل، وتابعت وسائل إعلامها الحدث يومًا بعد يوم. وربما يُخلّد لعشرات السنين.

وُضع للعلم إطار بعرض متر، زُيّن بشبكة من الحصى الناعم المطلي بالإسمنت الأبيض. أُحيط بهالة من الإضاءة

الساطعة بأربعة بلوجكتورات، فسطع ليلًا ونهارًا. شغل العلم مساحة 20×30 مترًا مربعًا.

بعد انتهاء العمل، وقف السيد عماد بجانب رفيقه أبو عبدو، يتأمل المشروع مبتسمًا، فخورًا بنفسه وبرفاقه، وقال ممازحًا:

- ما رأيك يا أبو عبدو؟

- الم اقل بأنك مجنون.

2016/1/ 1

كيد العقارب

ذات يـوم كنـت أتنـزه وأبنـي فـي حديقـة حيوانـات مدينـة العـين، حينهـا سـألني سـؤالا عـابرا حـين دخلنـا فـي صـالة الزواحـف والعقارب والثعابين، حيث قال:..

- بابـا؛ هـل لـك معلومـات عـن العقـارب وسـمها قـرأت معلومـة فـي الانترنـت تقـول بـأن لتـر سـم العقـرب بمليـون دولار، كمـا الخبـر يقـول بـأن لدغـة العقـرب لا تقتل أنما تؤذي فقط، هل هذا صحيح؟
- والله يـا بنـي أصـحاب الشـأن والاختصـاص هـم أدرى بـذلك، أقصـد فـرق الطـب والصـيدلة. لأنهـم مـن خـلال تحليـل محلـول السـم يمكـنهم معرفـة قـوة تـأثيره علـى خلايـا الأعصـاب والمـخ... لكنـي لـي علاقـة وطيـدة بالعقـارب أعتبرهـا صـداقة دائميـة، لقـد جمعتنـي الصـدفة بهـا فـي مواضـع شـتى، سأشرحها لك لتكون لك فكرة عنها.

لسعة العقرب وذاكرة "شايف خير"

فـي مسـاءٍ مـن مسـاءات أيلـول المنعشـة، كنـتُ فتيـا فـي الحاديـة عشـرة مـن عمـري، أتـابع برنامجًـا تلفزيونيًـا شـهيرًا يُعـرض مسـاء كـل خمـيس، اسـمه "شـايف خيـر"، يقدمـه فخـري الزبيـدي، صـاحب النكتـة والطرفـة، الـذي كـان يمـلأ البيوتـات

العراقية بالبهجة والضحكة. لم يكن في بيتنا تلفاز، شأننا شأن معظم الناس آنذاك، فكنت أتابع البرنامج من خارج مقهى "منشد" القريب من دارنا، واقفًا خلف الأرائك، أستند على ظهورها، منتعلًا نعالًا إسفنجيًا، أرفع نفسي على رؤوس أصابعي لأتجاوز رؤوس الواقفين والجلوس، محاولًا أن أقتنص مشهدًا من الشاشة الصغيرة التي تبعد عني عشرين مترًا.

في ذروة انشغال الجميع بالبرنامج، وفي لحظةٍ كانت فيها المفاجآت تتوالى على الشاشة، صرختُ فجأة:...."آخ!"

كأن صعقة كهربائية اخترقت جسدي من إصبع قدمي الكبير الأيسر، شلت قدمي، وزاغت عيناي، لأرى عقربة سوداء متوسطة الحجم تزحف بين أرجل الأرائك، تحاول الانزواء داخل المقهى. صرختُ: "عقربة سوداء دخلت المقهى!"

شعرتُ بنارٍ تشتعل في رجلي، من الأصبع حتى الورك، الألم كان لا يُحتمل، صرت أصرخ وأبكي، فانتبه إليّ الجمع، وتركوا البرنامج، وبدأوا يبحثون عن العقربة، لكنها اختفت عن الأنظار، تاركة خلفها قلقًا وخوفًا.

لم أعد أحتمل البقاء، فقررت العودة إلى البيت، أسحب رجلي الأيسر التي فقدت الإحساس بها تمامًا، كأنها كتلة ثقيلة معلقة بجسدي، لا أستطيع الارتكاز عليها. المسافة بين المقهى والبيت كانت مئة متر، لكنها بدت لي كأنها لا تنتهي. كنت أزحف زحف السلحفاة، بين الآه والأنين، والدموع تنهمر من

عينـي كصـنابير مفتوحـة، والشـارع خـالٍ مـن البشـر، فالكـل منشغل بالبرنامج.

حـين وصـلت إلـى البيـت، دلقـت البـاب، ثـم دفعـت بجسـدي إلـى الـداخل ككـيس دقيـق، فاسـترعى ذلـك انتبـاه والـدتي وأخـي الأكبـر، اللـذين كانـا يجلسـان فـي الطارمـة. كـان أخـي يلمـع خنجـرًا صـغيرًا فـي يـده، لـم يبلـغ بعـد، لكنـه انـدفع نحـوي مذعورًا، وسألتني والدتي:

"خيرا؟ ما بك يا ابني؟"

قلتُ وأنا ألهث:

"لسـعتني عقربـة فـي أصـبع قـدمي الأكبـر، وأنـا واقـف خـارج مقهى منشد أتابع برنامج شايف خير."

أخذني أخي جانبًا، وقال:

"لا تخف، أرني موضع اللسعة."

كـان موضـع الغـرزة واضـحًا، محمـرًا، فحـزَّه بخنجـره علـى شـكل علامـة زائـد، ثـم صـار يضـغط علـى الأصـبع حتـى نـزف بالسم الممزوج بالدم. لـم أشـعر بحـدة الخنجـر لشـدة الخـدر، لكـن مـا إن خـرج القيح الأصـفر مـع الـدم، حتـى شـعرت براحـةٍ تـدب في ساقي، كأنه سحب الألم كله مع الدم المراق.

عـاد الإحسـاس تـدريجيًا إلـى قـدمي، وانحصـر الألـم فـي الجـرح الجديـد، كـأن أخـي سـكب دلـوًا مـن مـاء مـثلج علـى نـارٍ مسـتعرة. سألني: "بماذا تشعر؟"

فقلتُ: "شكرا لك، انتهى كل شيء."

*****

زيارة آمر اللواء:

حين أنقذني الاستنفار من لدغة العقرب

مـع أول خيـوط الفجـر، ومـع لسـعة بـرد الصـباح التـي تتسـلل إلـى العظـام، دوّى فـي الأفـق صـوت صـافرة الإنـذار، أطلقهـا النائـب ضـابط ضـاحي، ذلـك الإنسـان المـرح، الطيـب، ابـن الناصـرية، الـذي تميـز ببشـرته البيضـاء، وطولـه الفـارع، ونحافـة جسـده، وشعره الأشقر الكث المبيض.

كنـت آنـذاك نائمًـا، تشاكسـني لسـعات البـرد، منكمشًـا تحـت بطـانيتي المقلمـة بالأخضـر والبنـي والأبـيض، فـوق فرشـتي الإسـفنجية الباليـة. تخـامرني أحـلام النجـوى، تلـك التـي تشـتط مـع سـاعات الفجـر، أبحـر فـي مركـب الخيـال، أتمـزق بـين سـطوة الكـرى ونشـوة الأحـلام، ألاحـق طيـف الحبيبـة، أرجـو عناقًـا أو لمسـة هـوى، حتـى جلجلـت أذنـي صـافرة ضـاحي، فهزتنـي مـن جـذوري، وأسـقطت أوراق شـجوني، ومحـت كحـل الوسن عن جفني.

كانت الصافرة نذيرًا بتغير في الظرف، تنذر بخطر قادم، أو حالة مستعجلة تستدعي التهيئة. الحرب سجال، والمفاجآت فيها لا تنتهي. شظايا الحلم تلاشت، ولم يبقَ منه سوى خيط دخان رقيق تماهى في العدم. نهضت، والريبة تسبقني، أتساءل:...

يا لله، خير... ماذا جرى؟ الأجواء هادئة، لا إطلاقات ولا قذائف!

وما إن شرعت بغسل وجهي، حتى ظهر ضاحي فوق رأسي، يحفزني:...

- هيا يا عباس، جهز نفسك بسرعة، آمر اللواء سيزور وحداتنا خلال ساعة!
- حاضر سيدي، خمس دقائق وأكون جاهزًا.

كان ذلك في الساعة السادسة صباحًا من أحد أيام تشرين الأول عام 1984، في قاطع شرق البصرة. كنت أحد منتسبي رعيل الهواوين الثقيل الأول، أحمل رتبة نائب عريف، صنف فني، أُنيطت بي مسؤولية الموقع الفني للرعيل، بعد أن غاب الآمر في إجازة. أما ضاحي، فكان مسؤولًا إداريًا.

تقع علينا مهام تنظيم السجلات، خرائط توجيه المدافع، إعداد الجاهزية، إعطاء أوامر الرمي، تنظيم الغياب والخفارات، المؤن، العجلات، الطلبات، النواقص، واستقبال الضيوف.

كنا نعيش في أرض صحراوية جرداء، قاحلة، مستوية، تغطيها الرمال البيضاء والصفراء الدقيقة كدقيق البر، تتطاير مع الريح، تضرب وجوهنا، وتعبث بملاجئنا. لا حياة فيها، سوى الجربوع، رفيق الدرب، الذي يقتسم معنا الزاد والسكن، يسرق المؤن، يقرض الأكياس والبطاطين بأسنانه الحادة كمسامير الأحذية.

الرياح لا تهدأ نهارًا، تبدأ بعزيفها في التاسعة صباحًا، وتشتد عند الظهيرة، ثم تهدأ بعد الثالثة، وتخمد بعد الخامسة مساء. الليل ساكن، تتلألأ فيه النجوم ببريق ساحر.

كنا نغرق في الغبار، في الفرش، في الملابس، في الأنفاس، في الطعام، في كل شيء. لا نغتسل كما يجب، ولا نأكل برضا، أضحينا جزءًا من الحالة، كأننا حشرات أصابها سكر الموت. من يعاني الربو كان في محنة، فالرؤية تنعدم، والهواء مشبع بذرات الرمل، لا تخترق الأبصار أكثر من عشرة أمتار.

نهضت من فرشتي، ارتديت الجوارب، ثم البسطار ما أن ارتديته حتى ضربت بالكعب الأرض بقوة، ثم أرفع سحاب الحذاء، ليطبق على رسغي. شعرت بكتلة صلبة تحت كاحلي الأيمن، كأنها حفنة تراب، تجاهلتها لعجزي واستعجالي.

غسلت وجهي، فطرت بشريحة جبن مسروقة من الجربوع، مع قطعة خبز بالكاد بقي فيها رمق، نفضت عنها الغبار، وشربت كأس شاي في موقع القيادة، أكملت التهيئة، نظفت

السجلات، وجهت المدافع، أعدت الخرائط، كل شيء كان جاهزًا قبل السابعة صباحًا.

ضاحي أتم عمله، القداحون والمخابرة والسواقون عملوا كخلية نحل، لم نشعر بغياب الآمر، كان الضمير هو الرقيب، نعمل كي لا تُسجل علينا نقطة سوداء، ننافس الرعائل الأخرى، نرتقي بسلم المجد، نشد نطاق المسؤولية حول خواصرنا.

لكن موكب آمر اللواء تأخر، تجاوزت الساعة الواحدة ظهرًا، ولم يظهر. الرياح اشتدت، الرمال تحركت كسيل جارف، تلسع الأقدام، تضرب الوجوه. في الواحدة والربع مر الموكب من جانبنا، متجهًا إلى وحدات المشاة، لم يزرنا، ربما منعته العاصفة، ربما شغلته أزمة في الجبهة.

أبلغنا ضاحي أن نبقى على وضع التهيئة، ربما يعود، لكننا علمنا أنه سلك طريقًا آخر في الإياب، تأكد لنا إلغاء الزيارة.

في الثانية ظهرًا، وصلت عجلة القصعة، زيل روسية، زحفنا نحوها كالنمل، أخذنا أرزاقنا: رز بمرق بطاطا، برتقالة، قرص خبز، تبهرت بالغبار، عصبت أجفاننا بكحل الرمال.

عدنا إلى الملاجئ، تغدينا، صلينا، استرحنا، قبل أن نعود للعمل مساءً. وبينما كنت أخلع فردة البسطار، لاحظت بلًا في كعب الجوارب، دفعني الفضول لنفض الحذاء، فسقطت

منه عقربة سوداء كبيرة، ميتة، مهروسة، تلك التي كنت أظنها حفنة تراب.

حين ارتديت الحذاء، كنت قد دعستها، عقصتها، قضيت عليها قبل أن تهاجمني، كانت متخفية جراء لسعة البرد أو الرياح، لكن سرعة ارتدائي الحذاء، وضرب الكعب بالأرض، جردها من المبادرة، ضيّقت عليها الحركة، فماتت.

كان الموقف حاضرًا أمام المخابر سبتي وضابط الصف ضاحي، حمدوا الله على سلامتي، كانت صدمة لنا جميعًا. لولا خبر زيارة آمر اللواء، لما أسرعت، ولربما نالت مني العقربة، لكن إرادة الله كانت حاضرة، درأت خطرها عني.

"وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ..." صدق الله العظيم.

صاروا يتبركون بي، يدعونني بالسيد، حيث قوضت إرادة الله كيد العقرب، فردّ كيدها في نحرها. حمدت الله، واستغفرته كثيرًا، فهو الرؤوف الرحيم بعباده:

"قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ۚ هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ" صدق الله العظيم.

\\\\\\

كأس الشاي

في واقعة أخرى كادت أن تودي بحياتي عقربة سوداء ضخمة، لولا رحمة الله التي نزلت في أوانها، فأنقذتني قبل أن تبلغ مأربها بلحظة خاطفة. كنت حينها جالسًا تحت جنح ظلمة حالكة، في تمام الساعة الحادية عشرة مساءً، متكئًا عند رابية المرصد في قاطع الطيب، شرق مدينة العمارة.

كان فكري مشتتًا، غارقًا في صور الأهل والمصير المجهول، والوضع الكئيب الذي خيّم على حظنا وأثقل أعناقنا. لا أدري من أين تتدفق تلك الأفكار المأساوية إلى رؤوسنا، لكنها كانت تنهمر في ذهني كالشلال، دون توقف، لتطفح في مستنقع من الصمت. لم يخلد البال للراحة قط، فالجبهة لا تمنحك رفاهية السكون الداخلي.

الجو كان ساكنًا تمامًا، الحرارة معتدلة، الجبهة هادئة، والسماء ملبدة بالغيوم. القمر لاذ بصمته، فغمرت الأجواء دهمة شديدة، لا يعكر صفوها سوى رشقات متقطعة من سلاح البي كي سي التابع للعدو، يطلقها بين الفينة والأخرى لتمشيط الجبهة. كان يحاول بها اصطياد المساكين والمتسكعين خارج ملاجئهم، في محاولة لزرع الخوف وزعزعة النفوس وسط تلك السكينة المريبة، وكأنه يريد أن يثبت لنا أنه حاضر، مستعد للمقارعة.

جلست هناك، أنتظر صديقي المخابر سبتي، الذي اعتاد أن يرافقني بكأس شاي نسمر به الليل. بصراحة، كانت تلك

الرصاصات تخيفنا وهي تمر فوق رؤوسنا بأزيزها، تنذرنا بالخطر، وتحذرنا من الترجل والمشي، إذ كانت تخترق الهواء بشكل مقوس، نظرًا لعلو روابيهم عن روابينا وهي قادمة في آواخر أنفاسها.

وفي خضم ذلك السكون المدهش، لفت سمعي صوت دحرجة حجرة قرب قدمي اليمنى، رغم أنني لم أتحرك. هجست بها كصرخة إنذار، جذبتني إليها، فشدّت انتباهي، واستعنت بمصباح صغير كنت أحمله لأتفحص ما حولي. ركزت إشعاعه على مصدر الصوت، وإذا بي أرى عقربة سوداء ضخمة تتقدم نحوي، لا يفصلها عن قدمي سوى شبر واحد.

كانت قد دحرجت تلك الحجرة خلال تقدمها، فحمدت الله على الفطنة التي ألهمني بها، وعلى رحمته التي أحاطني بها. دعست عليها ببسطاري العسكري، شاكرًا الله على لطفه وكرمه. فلولا تلك اللفتة، للسعتني العقربة، وأنا في تلك البقعة النائية المنقطعة عن العالم، فكيف كنت سأتصرف؟ من كان سينقلني إلى المشفى التي تبعد أكثر من ثلاثين كيلومترًا؟ كنت سأدخل في معمعة عسيرة من العناء والعذاب، حيث لا إسعاف، ولا عجلة، ولا علاج ينتشلني من تلك اللحظة الحرجة.

ما إن علم سبتي بالأمر، حتى قبل رأسي وقال لي:

– فعلاً الآن أؤمن بأنك سيد لما فيك من كرامة وصدق، لأن الحالة تكررت أمامي.

حينهـا حمـدت الله واسـتغفرته، فهـو الـرؤوف الـرحيم بعبـاده. قـال تعـالى: "قـل لـن يصـيبنا إلا مـا كتـب الله لنـا، هـو مولانـا، وعلى الله فليتوكل المؤمنون" صدق الله العظيم.

الكابوس

لا أحد يدري كيف بدأ الخبر في الانتشار. لم تكن هناك مقدّمات واضحة، لا إنذار مسبق، لا علامات تحذيرية، فقط همساتٌ تسرّبت بين الناس، تحوّلت إلى صخبٍ عاصف اجتاح الشوارع، حطّم سكينة الأسواق، ونثر الهلع في زوايا المدينة كما لو كان نذير نهايةٍ وشيكة.

"هناك عدوٌّ يترصّد الجميع، كيانٌ مجهول، يتنقّل بلا أثر، لا يُرى، لا يُلمَس، يتأبط الهواء في تجواله، يندسّ في الأزقة، يبزغ كالضوء، يخترق الجدران، ينفلق كالرعد، يزلزل النفوس، يفتك بالأشياء، يتفشّى كالنار، يتحوّل من دارٍ إلى دارٍ، لا شيء يقف أمامه!"

لكن، لا أحد رأى هذا الكائن. لا أحد أدركه، لم يمسكه بيديه، لم يلتقطه بعينيه. كلّ ما هناك هو خوف مشاع.

الخوف الذي صار أكبر من الحقيقة، صار كائنًا بحدّ ذاته، ينمو، يتغلغل، يتفشّى بيننا، ونحن نركض وراءه كما لو كان ظلًّا، كما لو كان عدوًّا لا وجه له ولا اسم.

في تلك الشوارع المزدحمة بالذعر، كنت أسير بلا هدفٍ واضح، أبحث عن يقينٍ وسط العاصفة. وجوه الناس كانت متجمّدة، محطّمة، كأنها فقدت القدرة على إدراك ما يجري. العيون شاردة، الخطوات متعثّرة، والنساء يركضن نحو البيوت قبل أن يبتلعهنّ المجهول. وسط الجموع، لمحتُ أمي،

واقفـةً كأنمـا داهمهـا طيـفٌ مـن الماضـي، وملامحهـا تنطـق برعـبٍ لـم يفـارق ذاكرتهـا منـذ الطـاعون القـديم. كانـت تهـرع كمـا لـو أن الـزمن يعيـد نفسـه، كمـا لـو أن ذلـك الوبـاء الـذي فتَـكَ بالنـاس فـي الحـرب العالميـة الأولـى والثانيـة عـاد ليأخـذ بثـأره. ربمـا يكـون القـادم الجديـد فايروسـا ينتشـر فـي الهـواء كالكرونـا أو كوفيد 19....

حاولـتُ تهـدئتها، لكـن الكلمـات تلاشـت فـي ضوضـاء الفوضـى المحيطة بنا.

حـين رفعـتُ الهـاتف لأتطمـأن علـى زوجتـي، حـدث شـيء غريـب. الخـط اشـتبك سـمعت صـوت رجـلٍ أعرفـه، أنـه صـوت سـالم الـدلال، الـذي اشـترى سـيارتها منـذ أيـام. كـأن القـدر أراد أن يكشف لي أمرًا لم أكن مستعدًا لسماعه.

بـدأ الحـديث رسـميًا، لكنـه سـرعان مـا انزلـق إلـى شـيءٍ آخـر... كلمـاتٌ لـم تكـن عاديـة، كانـت مغلّفـة بغـزلٍ مـبطن، تخـرج بجـرأةٍ غيـر مبـررة، كـأنني أسـتمع إلـى كـابوسٍ يتشـكّل أمـامي بصـوتٍ حـيّ، كـأنني وقعـتُ فـي دوامـةٍ مـن الهـواجس التـي لا تنتهـي. حيث قال لها:...

- تلـك الشـعيرات العالقـة علـى مقعـد السـائق... لا أجـرؤ علـى إزالتهـا، كأنهـا تـذكّرني بأنـك كنـتِ هنـا، أنفاسك لا تزال عالقة في المكان .

اشتد الغضب في صدري، كأن ريحًا سوداء اكتسحت كياني. في لحظةٍ واحدة، صار المرض المنتشر في المدينة بلا أهمية، لم يعد ذلك الوباء الغامض يستحق اهتمامي بقدر ما يستحقه هذا الصوت، هذه الكلمات، هذا العبث الذي تسلّل إلى عالمي دون إذن.

بحثتُ عن عمي(أبو زوجتي) في المقاهي الشعبية، وجدته هناك، مسترخٍ بلا اكتراث، كأنّه خارج حدود الذعر العام. سألته عن الخبر وعن زوجتي، فاستهان بالأمر، ثم باغتني بمعلومةٍ صاعقة:...

- زوجتك ليست هنا، لقد سافرت إلى البصرة.

وقفتُ مشدوهًا. هل هو حقيقة أم جزءٌ آخر من هذا الحلم الغريب الذي لا ينتهي؟ شيءٌ ما بدا مختلًا، كأنَّ الأمور كلها تُدفع إلى هاويةٍ لا قرار لها.

وبينما كنا نحاول العودة إلى المنزل وسط الفوضى، أُحِطنا بمجموعةٍ من الجنود يسوقون فصيلا من المستجدّين إلى المعسكرات لغرض ارسالهم الى جبهة القتال المشتعلة. انجرفنا بينهم بلا قصد، كأننا أصبحنا جزءًا منهم دون إرادة لغرض تجاوز الزحمة. عندما حاولنا الانسحاب، تمسك بنا العريف المسؤول عن السرية، كأنه مسمارٌ صدئٌ التصق بنا، حاولت ان انسحب دون جدوى قلت له لسنا جنودا...قال سنسجل اسمائكم الان...، عندها صرخت به قائلا:.. نحن في مهمة خاصة ياغبي،

عندها توقع نحن من صنف المخابرات ففك قيده عنا.

في تلك اللحظة هجست لم نعد أحرارًا، عرفت أنني لم أعد أبحث عن مرضٍ أو زوجة أو حتى حقيقةٍ واضحة، بل كنت أحاول الإفلات من دوامةٍ تبتلعني، من حلمٍ قد يكون كابوسًا، أو كابوسٍ قد يكون حقيقة.

حين وصلنا أخيرًا إلى البيت، وجدناه مُحاطًا برجال الشرطة، وأطفال الجيران يتهامسون. بأنَّ زوجتي اعتُقلت. يُقال إن سالم الدلال مات قبل ساعة بسبب مغصٌ شديد مفاجئ، "الوباء تسلّل إليه عبر السيارة..."

وقفتُ مشدوهًا، عيناي تجوب المكان، أدركتُ أنني لم أعد أفهم شيئًا. هل أنا داخل حلمٍ مسعور؟ هل هذا العالم حقيقة أم مجرد لعبة عقلية تتردد إلى ذهني كل ليلة؟

بخطواتٍ مشدودة، اتجهتُ إلى المستشفى، حيث كانت زوجتي ترقد، شاحبة الوجه لكنها حيّة، ابتسمت حين رأتني، وحين لامستُ يدي، تناثر كل شيء من رأسي كذرات غبارٍ كانت عالقة في فضاء اللاوعي. في تلك اللحظة، تيقنت أنني استيقظت من صفنتي التي اخذتني في بحر الخيال لأكتشف ذاتي تجلس مع حبيبتي على شاطئ البحر..... الكوابيس هي إشارة لسوء الأحوال.

أدركت أن ما حدث كان إنذارًا خفيًّا، كأن الله بعثه ليوقظني، يعيدني إلى جوهر العلاقة، إلى المودة، إلى السكن.

"وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُـم مِّـنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجًـا لِّتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا..."
(الروم: 21)

منـذ تلـك اللحظـة، أصـبحتُ أكثـر حرصًـا، أكثـر عاطفـةً، أكثـر امتنانًـا. لقـد علّمنـي الكـابوس أن الحيـاة هشـة... لكـن الحـب، حين يُصان، أقوى من كل الأوبئة.

بطاقة السكن

حين عدتُ إلى العراق، لم تكن أولى العقبات في الطرقات أو في تفاصيل الحياة اليومية، بل كانت متجذرة في عمق الدوائر الحكومية، تلك التي لا تزال تطلب من المواطن بطاقة السكن والهوية الموحدة تحت ذريعة "الدواعي الأمنية"، بينما الحقيقة تكمن في جيوب الموظفين التي لا تمتلئ إلا برشوةٍ تُدفع على استحياء أو قهر.

لم أكن أعرف كيف تُستخرج تلك الوثائق، فقد تغير شكلها ومضمونها وطريقة التعامل بعد سقوط النظام في 2003، وكان عليّ أن أبدأ ببطاقة السكن أولًا، مستندًا إلى نصائح من سبقني في هذا المضمار....

كنت قد نزلت ضيفًا عند عديلي لفترة أسبوع، وهناك عرّفني على صديقه فراس، وهو رجل أربعيني، نصّاب محترف يعرف الطرق الملتوية كما يعرف اسمه، وكأن بينه وبين تعقيدات الدولة اتفاقًا على جلدي.

اتفق معي على إنجاز الإجراءات كاملة مقابل 250 دولارًا، تمر خلالها المعاملة في متاهة دوائر الأمن والاستخبارات والإرهاب والمختار، وكل منها يطلب "موافقة" لا تُمنح للمواطن إلا مقابل رشوة آنية. وفي يومٍ واحد فقط أنجز

فـراس كـل الإجـراءات الأمنيـة بسلاسـةٍ مريبـة، ثـم سـلّمني الأوراق وقال:.....

- تكملـة الاجـراءات الباقيـة عليـك، راجـع مركـز الشـرطة ودائرة الإسكان.

ذهبـتُ لمركـز الشـرطة، فقـالوا: "راجـع دائـرة الإسـكان". وعنـدما راجعـت الإسـكان، قـالوا: "ارجـع للشـرطة ليقومـوا بـالجرد والاسـتطلاع". أصـبحت كـالمكوك بـين الشـرطة والأسـكان والمسـافات الطويلـة وعجـلات التكسـي. عـدت للشرطة مخذولًا، فقال المقدم:.....

- أحضر شاهدين من الجيران.

- هذا عقد الإيجار يثبت أنني أسكن في الزيونة...

فردّ ساخرًا:....

- العقـود غيـر مصـدقة، يمكننـي أن أجلـب لـك عشرات منها.

عدت للدار مع نهاية الدوام دون أن أبدأ حتى أول خطوة.

طرقـت بـاب الجيـران، طلبـت مـنهم بطاقـة سـكن لأسـتخرج بطـاقتي، فقالـت المـرأة: "نحـن سـكان جـدد، لا نملـك بطاقـة". أمـا الجـار الآخـر، فقـد عـاد حـديثًا مـن تركيـا ولا يملكهـا أيضًـا. بـدت المهمة مستحيلة.

فـي صـباح اليـوم التـالي، قصـدت محمد صـاحب دكـان الإنشـائية، كنت قد اشتريت منه مكانس للبيت. سألته: –....

- يـا محمد، الشـرطة تريـد شـاهدين مـن أهـل المنطقـة لاستخراج بطاقة السكن، وأنا لا أعرف أحد.

- ولمَ كل هذا؟ اذهب للمختار، هو يحل العقدة.

اتصـلت بالمختـار، عرفنـي مـن اسـمي، فقـد مـرت عليـه أوراق المصـادقة الأمنيـة، وقـبض مـن فـراس مبلغًـا مقابـل خـتم الأوراق. قال لي:.....

- تعال عندي.

طلبـت منـه إرسـال الموقـع، فبعثـه عبـر الهـاتف، واسـتأجرت تكسي وذهبت إليه.

استقبلني عند الباب، وسألني:.....

- هل رشيت المفوض؟

قلت له:....

- كلمنـي أمـام الضـابط والمـراجعين، فخجلـت أن اصارحه علنًا.

- خذه جانبًا وقل له: سأعوض تعبك.

حينها اتصل بالمفوض علي، شرح له القصة، ودعاني لمراجعته صباح اليوم التالي. ذهبت إليه، فوجدته قد أصبح صديقًا وفيًّا، مخلصًا في عمله، وكأنه أحد أقربائي. أخبر العقيد أنني من طرف المختار، أي أنني ممكن أن "أدفع لهم".

خرج معي للكشف، وعند دخوله الدار اتصل بالمختار، الذي أرسل له اسمين وهميين كشهود من الجيران. بصمتُ ووقّعت مكان الأول، وابني بصم ووقّع مكان الثاني. جرت الأمور بسلاسة مقابل خمسين ألف دينار، بذلك المبلغ اشتريت مركز الشرطة، من العقيد إلى المفوضين والشرطة.

تم الكشف، وأُرسلت المعاملة إلى مديرية الإسكان في السعدون، وهناك سارت الأمور دون تعقيد. أخيرًا، صدر كتاب لمركز الشرطة يثبت استحقاقي لبطاقة السكن، واستلمته مع نهاية الدوام.

عدت في اليوم الثالث لمركز الشرطة مع صورتين، وسارت الإجراءات بسلاسة حتى وصلت إلى المفوض عباس المختص بكتابة معلومات البطاقة. سألني:...

- هل تريدها بخط عادي أم مميز؟

- أكيد بخط مميز.

خطّها بشكل مبهر، ثم قال ليك....

- استنسخها كي لا تفقدها، دع صاحب الاستنساخ يغلفها، ولا تنسَ أن تعطيه مبلغًا معينا، قل له: هذه هدية للمفوض عباس.

هكذا استخرجت بطاقة السكن، التي كلفتني قرابة 350 ألف دينار أي قرابة مئتين وعشرين دولارا. فماذا يفعل الفقير أمام أنياب الوحوش السائبة في الدوائر الحكومية؟ كيف له أن ينجو من شبكة الفساد التي لا تترك له خيارًا سوى أن يدفع، أو أن يُدفن تحت ركام الإجراءات؟

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين
رواية ومجموعات قصصية

مجموعات قصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الإنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثانى

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقدار المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات

خلال تجوالي في سوق جالا المزدحم التقيت بمجموعة من النسوة، كانت من ضمنهنَّ أمي التي كانت متوترة وخائفة من وقع الخبر المرعب، لقد أدركت في طفولتها همجية الطاعون والكوليرا، لذا بقيت تلك الصورة المشؤومة مطبوعة في ذاكرتها، تلك العدوى التي فتكت بأوصال المجتمع وكشطت الألاف من البشر بلحظة غفلة، إبان الحرب العالمية الأولى والثانية. لذا وجدتها مرتعبة، خائفة.

كان الخبر قد أرهق كاهل الجميع وخاصة تلك السيدات اللاتي كنَّ بمعية أمي، كلٍ منهنَّ تشحذ صاحبتها على الإسراع في أخذ التدابير اللازمة، لتجنب غدر المرض الذي غدا خبره ينتشر كالنار في الهشيم.

لم يتممنَّ عملية التبضع بما تأمل رغباتهن لضيق الفرصة. ما أن سمعنَّ بصعقة الخبر حتى تجهمت وجوههن، عرجنَّ مستعجلات لبيوتاتهن سالمات. أضحت الناس أشبه بالسكارى هائمة في الطرق والشوارع، تركض خلف خيط الامان دون يقين.